الشيخ زعرب

الإهـــداء

معجزات هذا البلد فى عصرنا ثلاث :

« أم كلثوم » و« عبد الوهاب » و« الريحانى » .

وقد سبق أن أهديت كتابى « أغنيات » إلى المعجزتين الأولى والثانية . ويبدو لى أن المعجزتين إما تجهلان القراءة ، أو تجهلان الذوق ، لأنهما لم تشعرانى بأنهما أحستا بالإهداء .

وأشعر رغم ذلك أن من واجبى أن أهدى كتابى هذا إلى المعجزة الثالثة . يشجعنى على ذلك أنها خرجت عن نطاق البشر وأضحت فى عداد الأرواح ، وأنها بذلك ستجنبنى ــ لا محالة ــ مشقة جحود الأحياء .

فإلى روح « الريحانى » أهدى كتابى هذا . فهو أحق من سواه .

بـ « الشيخ زعرب وآخرون » .

« يوسف السباعى »

(أغنيات)

مقدمة

هذا الكتاب توأم لـ « أبو الريش » .. والتوأمان مصريان أصيلان منتزعان من صميم الحياة المصرية الأصيلة .. بين الحوارى والدروب .. أو بين « أبو الريش وجنينة ناميش » .

ولئن كان رابط القصص فى مجموعة « أبو الريش » هو عامل المكان .. فإن رابطها فى « الشيخ زعرب » هو الشخصية .. والرابط فى كلا التوأمين كما قلت مصرى .. ولذا فليس هناك حد فاصل بين التوأمين .

« فالشيخ زعرب وآخرون » قد يعيشون فى « أبو الريش وجنينة ناميش » وما بينهما ... وكذلك قد تحوى دروب « أبو الريش وجنينة ناميش » الكثير من أمثال « الشيخ زعرب » وزملائه .

ولست أدرى ما إذا كان هذا النوع من القصص المحلى الفكاهى الساخر يرضى جمهرة قراء البلاد العربية كالعراق وسوريا ولبنان ومراكش وغيرها من الشقيقات الناطقات بالضاد والذين يشاركون القراء المصريين فى استيعاب جزء كبير من إنتاج الأدب العربى .

لست أدرى مدى رضاء هؤلاء الإخوان عن مثل هذا النوع من الإنتاج ولكن الذى أدريه هو أن هذا النوع شىء واجب .. فهو لا يعدو تسجيل لوحات كائنة فى حياتنا .. بل إنها هى حياتنا فعلا .. وإذا لم يسجل الكاتب حياة قومه .. فمن يسجلها ؟

بقيت كلمة أحب أن أوردها فى هذا التقديم .. وهى دهشى من ذلك الانزعاج الشديد الذى يصيب البعض عندما يصطدمون — على حد قولهم — هنا وهناك ببعض الأغلاط اللغوية .

وإنى أوافقهم على أن هذه الأخطاء على قلتها أشبه بالأتربة التى قد تؤثر تأثيرا ظاهريا على بهجة الكتاب .. ولكن أعتقد أن مهمة الإزالة هذه توكل دائما إلى المصححين .. وأن الكتاب يمر قبل الظهور على ما لا يقل عن أربعة من ذوى العمائم والتمائم .. فإن بقيت به بعد ذلك أتربة فهو تقصير من مزيلى الأتربة اللغوية أو كناسى اللغة .

ولكن ذلك لا يجب أن يدعو البعض إلى مثل هذا الانزعاج الذى يبدونه ، فاللغة أولا وآخرا لا تزيد عن وسيلة للتعبير . وصحتها تقاس بقدرتها على إفهام الغير ما تود قوله ، والتأثير على نفسه بما فى نفسك وإشراكه معك فى تفكيرك ومشاعرك .

وإذن فمن الخطأ أن نباشرها كشىء معقد فى ذاته ، ثقيل فى مباشرته ، بل يجب أن تكون لدينا الجرأة فى التحلل من كثرة قيودها وتعدد نظمها وقواعدها ، وتشكيلاتها وتصريفاتها .

وإنى أعتقد أن الزمن كفيل بذلك .. فهو جار فى تخفيف اللغة بما يناسب تطور التفكير ، ولست أشك فى أن تسعة وتسعين فى المائة من القراء لا يشعرون قط بما قد يصادف هؤلاء البعض من الأخطاء التى تصدمهم وتزعجهم .

وما دامت أمثال هذه الأخطاء وهى غير متعمدة لا تحس بين الأغلبية الراضية .. فليس على الأقلية المنزعجة إلا أحد أمرين : إما تعودها حتى تصبح فى حكم الصواب ، وإما إراحة أنفسهم بتصحيحها فى سكون .

إن مباشرة اللغة العربية كحرفة معقدة مليئة بالنظم والقواعد شىء يجب أن يزول .

وهو أمر يحتاج إلى جرأة قدير كجرأة « دانتى » حينما ترك اللغة اللاتينية جانبا وجعل من الإيطالية المحلية لغة أدب .

وبعد ، أرجو ألا يكون فيما كتبت مزيد من إزعاج لمحترفى اللغة .

« يوسف السباعى »

الشيخ زعرب

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات وهذا الخليط في ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين ..
داخل السرادق تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب غير الفاخر .

قبل أن أقص عليك قصته .. تعال معى نجول جولة فى وجهه .

رويدا .. رويدا .. حتى لا نضل بين الأخاديد والتجاعيد والوهاد والنجاد .... لنبدأ « من فوق لتحت » .. من أعلى قمة له .. حيث يقوم طرف زر بلا زر .. قصير أشبه بعقب السيجارة .. يعتلى طربوشا .. ليس به من سمات الطرابيش إلا هيكله المنهار الجوانب المطبق الجدران ، أما اللون فأسود أغبر تكون من خليط من تراب وعرق ، ولنهبط بعد ذلك إلى وجهه ، فنستقر على جبينه برهة .. حيث يصادفنا أول نتوء فى منتصف الجبين .. نتوء أشبه بكاللو وارم منتفخ .. رفعت عنه حافة الطربوش التى بدا من أسفلها شىء أشبه بحرف طاقيا بيضاء .. أو منديل رأس .. يعصب به الرجل رأسه حتى لا يكبس ذلك الطربوش على نافوخه ، وتمر بالنتوء البارز أخاديد متعرجة متوازية تنحدر يمينا وشمالا فى جبين الرجل حتى تصل إلى الأذنين .. يقطعها من أسفل أخدودان رأسيان يمران بين العينين ويستقران على أعلى الجبهة فى وجه الرجل ، والنتوء من أهم الظواهر فى جبين الرجل ، وهو لا يستمد أهميته هذه من هيئته الطبيعية بل من قيمته المعنوية .. فهو بمثابة مواهب ومستندات وشهادات على ولاية الرجل ،

وإدمانه الصلاة والعبادة والسجود .

إن هذا البروز .. هو زبيبة الصلاة .. وآية الورع والتقوى .

لنعبر زبيبة الصلاة .. أو كاللو التدين والولاية .. ولنهبط بين العينين فنستقر على أرنبة الأنف ولنقلب البصر ذات اليمين وذات اليسار بين العينين والأذنين .

فأما الأذنان فعريضتان .. كأنهما جناحا خفاش أو أذنا حمار ، وأما العينان فمن الجور أن نسميهما عينين .. فهما لا تعدوان أخدودا أكثر عمقا يتمم أخاديد الجبين ، ولولا ارتجاف فى الجفن بين آونة وأخرى ، ولولا تعودنا أن نجد عينين فى هذا المكان من الخلقة الآدمية ، لما اعترفنا بعينى الرجل ، ولما أحسسنا لهما وجودا !.

أما وقد توقفنا أمامهما ، واعترفنا بوجودهما .. فليس هناك بد من التمعن فيهما ، والتحقق فى أوصافهما .. الرموش أو بقايا الرموش دائمة مسبلة ، والجفون مغلقة مطبقة .. فإذا ما فتحت دفعت إلى الذهن قول شوقى « مقروح الجفن مسهده » . فلا أظن أن هناك مثلا أفضل منه للجفون المقروحة الدامية الذابلة ، ويعلم الله أمن سهد قرحها أم من رمد ..! على أية حال .. إن الرجل من أولياء الله وعشاق الرسول .. فهو والحال كذلك يدخل فى زمرة العشاق ، وسهد العشق لا يستبعد على مثله !.

فإذا ما تركنا العينين إلى الأنف ، وجدنا أنفه هيئة ضخمة محترمة .. تشغل من فرط عرضها وضخامتها ثلثى مساحة الوجه ، وهو من حيث الشكل أشبه بالطربوش السابق الذكر .. ليس له هيئة محدودة .. بل منبعج مفرطح ، ملىء بالمسام والشعيرات .

فإذا هبطنا من الأنف ، وجدنا أنفسنا قد استقررنا فجأة على الشفة العليا .. أو بتعبير أصح الحافة العليا للفم .. دون أن نعبر المسافة المفروض أن توجد بين الأنف والشفة التى ينبت فيها الشارب فى الوجوه الآدمية الأخرى ، ويعلم الله .. إذا كانت لتلك المنطقة المستترة وجود فى وجه الرجل .. أم لا وجود لها ! فإن

طرف الأنف قد تدلى ، حتى أخفى ما وراءه .. فبدا شارب الرجل وكأنه قد نبت من طاقتى أنفه ، واختلط بذقنه البيضاء الشعثاء الهابطة من شحمتى الأذنين إلى منتصف الصدر ، والتى يحيط بها .. المستند الثانى لولاية الرجل ، وهو المسبحة المعلقة حول عنقه المدلاة على صدره ...

استرح برهة ، وخذ نفسك .. فأغلب ظنى أن الملل والتعب قد أصابك من تلك الجولة المنهكة فى هذا الوجه المقفر الخرب .

لا تريد أن تستريح !. ذنبك على جنبك .. هيا بنا وراء الرجل لنرى إلى أين نذهب .

إن اليوم لديه يوم مشهود فقد ارتدى بدلة التشريفة الكبرى ، وأخفى هلاهيله بعباءة فضفاضة حمراء خضراء وأمسك فى يده عصا المرشالية وهى أشبه بالعصى التى تستعمل فى تنظيف الأسقف التى توضع فى نهايتها (رأس العبد) . لا تختلف عنها إلا فى أن زعرب استبدل بالعبد كلمة (الله) منقوشة على صفيحة أشبه بشخشيخة تتدلى منها شرابة كانت فيما مضى (دكة لباس) !.

لنذهب وراءه .. حتى يستقر المقام بنا وبه فى أرض الغفير حيث الاحتفال بالمحمل .

الميدان فسيح .. قد اصطفت فى منتصفه قوات الجيش ما بين فرسان ومدرعات ومشاة ، والجنود متأهبة والمدافع منصوبة .. كأننا فى ميدان قتال ، والنداء يعلو من مكبر الصوت فتهتز الأسلحة وترتفع وتنخفض ، والله وحده يعلم ما صلة كل هذا بالمحمل .

لننتظر .

أين المحمل ؟، وأين الشيخ زعرب ؟.

ها هما هناك .. فى أحد أركان الميدان ، وأمامهما صفت السرادقات المقامة فى واجهة الميدان وقد تكأكأ فيها حشد من القوم يتطلعون بأبصارهم فى لهفة .. إلى لا شىء .. ويتشوقون إلى مشاهدة ما سبق أن شاهدوه عشرات المرات

بلا تغيير ولا تبديل .

وتبدو بضعة جمال .. بينها جمل مصبوغ بالحناء . وقد وضع على رأسه منفضة .. أى والله منفضة ريش لا تختلف قيد أنملة عن المنافض التى يزيلون بها التراب عن الأثاث ، ويأخذ الجمل فى البعبعة والكركرة ، ثم يجذب قائده مقوده إلى أسفل ويبركه على الأرض ، ويأخذ طابور من جنود بلوك الخفر المرتدين الفانلات الصوف البنى فى حمل الهودج المستقر بجوار الجمل ليضعوه على ظهره ويثبتوه به .

ويرفع الجنود الهودج بعد أن يحيطوا به من كل ناحية فى الوقت الذى ينطلق فيه الصياح من حناجر « طقم المحمل »منشدين بصوت نشاز بضعة أناشيد لا يفهم لها معنى .. ملتفين حول الجمل البارك ، وبينهم الشيخ زعرب يهتز مترنحا وقد رفع عقيرته بالغناء .

يظل الهودج يتمايل بين يدى الجنود ، وهم يحاولون تثبيته على ظهر الجمل ، والثلة العجيبة ، من الأولياء وأهل الله تترنح وتتمايل وتنعق فاغرة أفواهها كالغربان وقد تكون منهم خليط مضحك يعجز أقدر المسارح الكوميدية عن إخراج مثله .. ففى خلقهم عجب ، وفى لبسهم عجب .. تراهم ما بين أكرش منبعج ، وهزيل نحيل ، وأعرج وأكتع وأحدب وأعور .. قد غطوا أجسادهم بعباءات صفراء ووضعوا على رءوسهم عمائم بدت فى مجموعها أشبه بقوس قزح .. فهذا قد لف عمامته بشال بنفسجى ، وذاك بشال فستقى ، والآخر بشال أحمر إنجليزى .

وينتهى القوم من تثبيت الهودج على الجمل .. عندما تسمع فى الجو أصوات صفافير وفرقعة متوسيكلات .. ثم تبدو عربة حمراء فخمة أنيقة ، وينطلق صوت المكبر آمرا الجنود :

« سلام نائب الملك » .

فترتفع الأسلحة وتنخفض ، وتبدأ المدافع قصفها والموسيقى عزفها .

ويقف زعرب وسط جمهرة الأولياء .. يقلب البصر فيما حوله .. ثم يرفع شفته السفلى .. اشمئزازا ، ويهز رأسه عجبا !

كل شىء كما هو .. لا جديد فى ميدان الغفير .. ولا فى غير ميدان الغفير .

ما زالت مصر بلد العجائب والمتناقضات ، وهذا الخليط فى ميدان الغفير خير شاهد على ذلك .. فداخل السرادق وخارجه يبدو أكبر تناقض يمكن أن تقع عليه عين .

داخل السرادق .. تصطف الحكومة المصرية الفاخرة ، وخارج السرادق يحتشد الشعب المصرى .. غير الفاخر .

ويأخذ المحمل فى الاستعداد للتحرك ، وتصطف أمامه صفوف من الجند بالملابس البيضاء ، ويعلو صوت المكبر صائحا : « سلام المحمل سلاح سلام » .

وتصدح الموسيقى ، ويبدأ المحمل سيره فى لفة ضيقة ، وقد سار وراءه موكب من الجمال .. يعلوها نافخو المزامير وبعض المشاة من أولياء الله ، واندس بينهم الشيخ زعرب .

وبدأ الشيخ زعرب يعد اللفات فى سره .

طبعا سيلف المحمل سبع لفات كما يفعل كل سنة !

عجبا .. لم كانت سبعا ، وليست ستا أو ثمانى ؟.. هذا شىء علمه عند أهل الدين .

ولكن ما السبب لأن يلف المحمل حول نفسه فى ميدان الغفير ؟. وما السبب فى وجود كل هذا الجيش ؟.

علم ذلك عند الله وحده .

ويبدأ قصف المدافع .. والشيخ زعرب لا يخاف شيئا كهذا الدوى .. فهو يذكره بأيام الغارات .. وأخذ جسده ينتفض عقب كل طلقة .. وأخذ يرفع بصره مستنجدا بالمحمل .. ثم انتقلت عيناه من هودج المحمل إلى الهياكل الخشبية

التى وضعت عليها الكسوة الشريفة وقد طرزت عليها بالقصب آيات قرآنية كتبت بخط جميل تشابكت حروفه .

وهز زعرب كتفيه فى عجب ! وساءل نفسه : ماذا يضيرهم لو كتبوها بطريقة مقروءة ؟! أم تراهم كتبوها غير مقروءة من أجل الذين لا يعرفون القراءة ؟!

وانتهى المحمل من لفاته السبع .. وبدأت القوات العسكرية تتحرك للمرور فى الاستعراض .. ووقف زعرب يرقب ذلك الجمع الهائج المائج ، وشرد به الذهن إلى زمن مضى يبدو له غير بعيد ، كأن السنين الغابرة التى تفصله عنه قد تقلصت وانكمشت ، فبات منه على قيد ليال وأيام أو بات أقرب إليه من أمسه القريب .

كان أول عهده بالمحمل منذ خمسين عاما ، وقد جلس يرقبه من طابونة أبيه فى حى الحسين ، وكان الناس قد تكأكأوا فى الشوارع حتى لم يبق هناك موطئ لقدم .. واشتد الزحام فى النوافذ وفوق الأسطح حتى بات الناس كأنهم ذباب حط على قطعة حلوى !

وبدت بشائر الموكب وظهر المحمل يتهادى ، ووراءه المزامير تنفخ والأناشيد تتلى والدعوات تتعالى ، وبين تلك الأصوات المختلطة كان يعلو صوت صرخات حادة . وأخذ زعرب يبحث عن صاحب الصوت .. حتى وقع بصره على مخلوق عجيب قد لف فى أسمال حمراء خضراء صفراء زرقاء بيضاء سوداء ، وأحاط عنقه بقلائد من الودع وصغار المحار ، وأخذ يقفز ويتواثب ويتراقص وراء المحمل صارخا بأعلى صوته : « أنا فى جاه النبى » !

وسأل أباه عن هذا المخلوق الراقص الصارخ . فأجابه بأنه الشيخ كتكوت أحد مجاذيب الحسين ، وهو رجل به (هفة) تدفعه كل عام إلى أن يعدو وراء المحمل بهذه الهيئة ، ولا يهدأ له بال حتى يشيع المحمل إلى نهايته .

وتعود بعد ذلك أن يرى الشيخ كتكوت كل عام وهو يعدو وراء الموكب مستغيثا بجاه النبى ، وانطبعت صورة الرجل فى ذهنه على هيئته تلك . ولم يعد

يتصور أن الرجل يمكن أن يكون إلا على هذه الحالة من العدو والصياح .. حتى كان ذات يوم وقد جلس فى الطابونة بجوار أبيه يرقب أقفاص العيش الخارجة ويرصد الحساب الداخل ، ويأمر وينهى بين الخبازين والفرانين عندما سمع عواء أشبه بعواء كلب جريح وصيحات متتابعة « حرامى » .

وترك مقعده واندفع إلى خارج الطابونة يتبين جلية الأمر .. فإذا به يرى الشيخ كتكوت يعدو ، ولكنه كان هذه المرة بلا محمل يتقدمه ، بل بموكب من الرجال والصبية يعدون وراءه .. ينهالون عليه بالعصى والطوب وهو يطبق بجنون على رغيف فى يده ويصيح بأعلى صوته ، كما تعود أن يصيح : « أنا فى جاه النبى » ، ولكن كان هناك فى هذه المرة ما يستحق الاستغاثة .

وتكاثر القوم على الشيخ كتكوت .. يحاولون نزع الرغيف من يده .. منهالين عليه بالسباب والشتائم . وكان الرجل قد بلغ باب الطابونة ، ولم يجد ملجأ سواه .. فانحرف فيه فجأة مختفيا داخل الطابونة مبتعدا عن مطاردة الناس له .

وتكأكأ القوم على الباب ، ووقف زعرب فى طريقهم يمنعهم من الدخول ، وصاح به أحدهم :

ــ امسك الشيخ كتكوت الحرامى .. المجرم .. لقد رأيته بعينى يسرق الرغيف من فوق القفص .

وبلا تفكير مد زعرب يده إلى أحد الأقفاص المرصوصة فى الداخل وأعطاه للقوم ، وصاح بهم :

ــ ما هذا الضجيج .. إن الرجل لم يسرق شيئا .. هاكم الرغيف المسروق انصرفوا وشأنكم .

وتفرق القوم مخذولين محسورين .. فما كانت المسألة مسألة رغيف .. بل كانت رغبة فى الأذى وحبا فى الشر !.

والتفت إلى الداخل فوجد الشيخ كتكوت يقف وراء كوم من الأقفاص وقد

أطبق بأسنانه على الرغيف يقضمه بنهم وعجلة كأنما يخشى أن يستعيده منه القوم .

ومضت عليه برهة وهو فى مكانه لا يريد الانصراف ، أو كأنه قد أضحى فى مأمن لا يود تركه .

ولكن زعرب أنبأه أنه يستطيع الانصراف بالرغيف آمنا مطمئنا ، دون أن يخشى شيئا .. وعاد إلى داخل الطابونة .. فسأله أبوه عما هناك فأخبره بما رأى وما فعل .

واستحمقه أبوه ، وانهال عليه باللوم والتقريع ، وأنبأه أن هذا الرجل الذى أحسن إليه بالرغيف لا يستحق الحسنة لأنه يملك آلاف الجنيهات .. جمعها من التسول .. إنه يعرفه تمام المعرفة ، وأنه إنما يدعى الجوع والفقر ليأخذ ما يريد .. وأصر على أن يخصم ثمن الرغيف من مصروفه .. حتى يعطيه بذلك درسا لا ينساه .

ومرت السنون ، واختفى المحمل ، واختفى معه الشيخ كتكوت ومات أبو زعرب .. وآلت إليه الطابونة بما فيها وأضحى هو صاحب الأمر والنهى .

وأثمر فيه درس أبيه .. فلم يحاول أن يحسن قط .. بل كان كل همه هو جمع المال .

وانتعشت أعماله ، وزاد رزقه واتسعت موارده .. وبلغ أوج مجده وارتفعت قمة غناه ، واطمأن إلى الدهر .. حتى خذله الدهر فجأة .. عندما حدث حريق فى الطابونة ذات ليلة .. فأتى عليها وأودى بما فيها . وأصبح عليها الصبح التالى فإذا بها خليط من هشيم ورماد .

وكانت صدمة مروعة عنيفة .. لم يفق منها حتى الآن .. وانحدر به الحال .. حتى بات لا يجد له مرقدا ولا مأوى إلا على قارعة الطريق بجوار الحسين وسط تلك الثلة من المجاذيب والأولياء .

وهكذا دخل فى زمرة المجاذيب ، وطبعته السنون بطابع أولياء الله ، وأنبتت

له الزبيبة السالفة الذكر ، واتخذ مكانه المختار على مصطبة قيل له إنها كانت من قبل لرجل يدعى الشيخ كتكوت ، كان من أولياء الله الصالحين لم يرتكب فى حياته سيئة أو يفعل منكرا ، سوى أنه سرق رغيفا ذات مرة عندما ضاق به الحال حتى أوشك أن يموت جوعا !.

وصاح زعرب بمحدثيه :

ــ إن الشيخ كتكوت لم يسرق .. فقد رد الرغيف إلى أصحابه .

ومن أدرى بذلك سواه ؟!

ووجد زعرب نفسه يسير فى ذلك الطريق الذى سلكه سلفه الشيخ كتكوت ، ولم يكد الاحتفال بالمحمل يعود إلى سابق عهده بعد طول اختفاء .. حتى اتخذ زعرب مكانه وراء الموكب .. يعدو راقصا صائحا « أنا فى جاه النبى » !.

* * *

وعاد زعرب إلى نفسه وأفاق من شروده .. عندما بدأت المدافع تطلق تحية لنائب الملك وهو يهم بالانصراف .. وتحركت العربة الفخمة تليها بقية العربات فى عجلة وتزاحم كأنها فى سباق .

وبدأ الموكب يستعد للمسير .. هابطا إلى شارع العباسية ثم شارع فاروق وقد تكأكأ الناس على جوانب الطريق واحتشدوا فى النوافذ والشرفات .

وأخذ سيل المجاذيب يتدفق وراء المحمل ، وانطلقت الزغايد وتعالت المزامير ، والطبل البلدى ، وأضحى الموكب أشبه بزفة راقصة .

واتخذ زعرب مكانه وسط المجاذيب ، وبدأ فى الرقص والصياح .. عندما مر بذهنه فجأة قول الرسول : (إنى مباه بكم الأمم يوم القيامة) .

وتلفت حوله باحثا فاحصا وحاول أن يجد فيما حوله شيئا يستحق أن يباهى به الرسول ، ثم هز رأسه متشككا وقال لنفسه :

« شد ما أخشى أن نخذلك يا رسول الله » .. وسرعان ما أبعد عنه خواطره ثم

اندفع فى الرقص والصياح : « أنا فى جاه النبى » !.

* * *

وأخيرا انتهى الموكب .. أو الزفة ، ووجد زعرب نفسه يعود فى النهاية إلى جحره متعبا مكدودا وقد نال من الإعياء ، وأحس بقارصة الجوع فما دخلت جوفه لقمة واحدة طول اليوم ، ولم يكن يملك شيئا يستطيع أن يشترى به طعاما ، ومر بخاطره أن حرفا واحدا من تلك الحروف المختلطة التى طرزت بها الكسوة .. كان يمكن أن يهيئ له ولعشرة من أمثاله وليمة فخمة ، ولكن من يدرى بوجوده أو يشعر بجوعه !

ووقع بصره فجأة على حانوت للعيش قد رصت فى دولاب فى واجهته الأرغفة وقد أخذ سطحها المنتفخ يبرق متوردا .. وخطر له أن يمد يده فيخطف رغيفا ، ولكنه تذكر الشيخ كتكوت وتذكر مصيره عندما سرق الرغيف وتخيل كل سكان الشارع وقد أخذوا يعدون وراءه ، ويشبعونه ضربا ولطما .. كأنه بسرقة الرغيف قد أماتهم جوعا .

ووقف برهة يحملق إلى الأرغفة شارد الذهن غارب البال ... عندما أحس بيد توضع على كتفه وسمع صوتا يناديه :

— تفضل يا شيخ .

وتلفت وراءه فوجد صاحب الحانوت بصديريته المخططة وسرواله الطويل ، وجسده النحيل وقد مد يده إلى الدولاب فأخرج أحد الأرغفة وأعطاه له .

هذا آخر ما كان يتوقعه ..

وأخذ زعرب الرغيف فى إطراق وصمت ، وبدا له كأنه يعرف صاحب الوجه من قبل .. ولكنه لم يتذكر أين رآه !. ولا من هو .

وقبل أن ينصرف زعرب قال له الرجل :

— احضر إلىّ كل يوم حتى أعطيك رغيفا .. سأجعله راتبا يوميا لك .

وتمتم زعرب ببعض الدعوات ثم أدار ظهره وهم بالانصراف .

ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى أبصر صبيا يفد على الحانوت ويصيح بصاحبه :

ــ أعطني أقتين يا معلم كتكوت .

كتكوت !.. كتكوت !.. أجل لقد تذكر .. إن هذا الشبه هو شبه الشيخ كتكوت بعينه .. إن الرجل لا شك ابنه .

عجبا !.. أبعد هذا العمر الطويل .. يرد الديْن بالربح المركب !؟

حقا .. « افعل المعروف وارمه البحر ، فهو لا شك مردود إليك وإلى ذريتك من بعدك !!.. » .

حسن أفندى

هذه قصة يرويها « طربوش حسن أفندى » . هل سمعتم عن حسن أفندى ؟ أجل .. أجل .. إنه هو حسن أفندى الشهير صاحب النكتة إياها .

ماذا تقولون ؟.. إن بعضكم لا يعرفها !! وتطلبون منى أن أرويها لكم .. لا .. لا .. عيب جدا .. هذا كلام لا يروى .. إن كل ما أستطيعه هو أن أدع « طربوش حسن أفندى »يروى قصته .

أنا لا شك طربوش قدير .. طربوش « بهلوان »ولو لم أكـن كذلك لما استطعت أن أستقر لحظة على رأس حسن أفندى .. من فرط « ما عوجنى » على حاجبه الأيمن .. إنى لا أكاد أبصر نفسى فى المرآة حتى يصيبنى الذعر ويخيل إلى أنى سأهوى من فوق رأسه .. ومع ذلك . فما هويت قط .. بل استطعت أن أحتفظ بتوازنى دائما ، حتى فى الأوقات الحرجة التى ينهمك فيها حسن أفندى فى تلعيب حواجبه على سبيل « البصبصة » .

إن حسن أفندى رجل بصباص .. لا يشغل رأسه فى الحياة شىء كالنساء .. وهو لذلك شديد « العياقة » .. وكل « عياقته » تنصب علىّ وعلى شاربه .

إنى أبصره الآن أمامى ، وقد تمدد فى فراشه .. وعلا شخيره وصفيره .. وبدا منظره كأقبح ما يكون إنسان .. وقد تعرى جلبابه عن ساقين كالجريد .. ومال كرشه على أحد جوانبه ، وانفرجت شفتاه الغليظتان فى بلاهة لتخرج أنفاسه الصاخبة .. وتهدل شارباه .. وأسبل جفناه ، وغطى رأسه بطاقية بيضاء مخططة .

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر .. وقد تناول حسن أفندى غداءه

فى « المسمط » القائم على ناصية الشارع والذى تعود أن يتناول فيه غداءه كل يوم حتى لقد مللت أنا نفسى منظر لحمة الرأس وفتة الكوارع .

وبدأ حسن أفندى يتقلب على جنبيه .. ويفرك بيديه أجفانه ، ويتثاءب ويتمطى ، ثم نهض من فراشه أحمر العينين منتفخ الوجه ، ودس قدميه فى القبقاب .. وسار يقرع به أرض الحجرة متجها إلى الحمام .

وسمعته يتنخم ويتمخط ، ثم بدأ يرفع عقيرته بالغناء صائحا بصوته النشاز :

« يا مالك قلبى بالمعروف .. حبك كوانى تعالى شوف » .

وأخيرا خرج من الحمام ، وقد أغرق رأسه ووجهه بالمياه ، وأمسك بمنشفة ، أو على الأصح بمسحة ـــ فقد كانت من فرط قذارتها لا تصلح إلا لمسح البلاط ـــ ووقف أمام المرآة يمشط رأسه بتؤدةٍ وعناية .

وخلع الرجل جلبابه .. ووقف بالقميص « الكريشة » واللباس « البفتة » الواصل إلى ما تحت ركبتيه وأخذ يتحسس عضلاته ، ويحرك يديه إلى أعلا وإلى أسفل فى شبه تمرينات رياضية .

ومد يده فسحب القميص من فوق المشجب وأخذ فى ارتدائه ، وأحكم ربط الكرافتة حول الياقة المنشاة التى قد علاها إطار من العرق والقذارة ، ثم دس ساقيه الرفيعتين فى بنطلون أخرجه من تحت مرتبة السرير .

وأتم الرجل ارتداء ملابسه .. واطمأن على المنديل الحريرى فى جيب الجاكتة .. وعلى كتينة الساعة فى جيب الصديرى .. وأخذ يفتل شاربه بعناية بالغة ، واضعا عليها بعض الكوزماتيك .

وبدا عليه الرضا التام .. ومد يده إلىّ فنقرنى بأصبعه بضع نقرات أثار بها من جسدى هاجع الأتربة .. فعلتنى سحابة قاتمة من الغبار .. وأخذ يمسحنى بكمه بشدة حتى انجلى عنى معظم ما بى ، وأحسست بشىء من الخفة والنشاط .

ونظر إلى المرآة ووضعنى على رأسه بعناية بالغة ، وميل شديد على أحد حاجبيه .

وخيل إلىّ أن ميلى على حاجبه فى هذه المرة أكثر من المعتاد .. وبدا لى من حركاته أنه مقدم على أمر جلل .. وخاصة بعد أن أبصرته يمسح حذاءه فى ساق بنطلونه ..

وأخيرا .. وبعد أن اطمأن على منظره تماما .. تناول عصاه ، وغادر الحجرة هابطا الدرج فى ثقة واعتزاز .

وكنت أعرف طريقه الذى لا يحيد عنه ، ووجهته التى لا يقصد سواها .. وهى دكان الأسطى زكى المزين ، الكائنة فى شارع خيرت ، فهو يهبط من البيت فى شارع الناصرية ، فيلقى التحيات ذات اليمين وذات اليسار ويرفع بصره خلسة إلى النوافذ علَّ بها ما « يشبرق » به نظره .. ثم يتمهل أمام « المقلة » .. حيث يحشو جيوبه باللب الجرنة والفول السودانى ، ويتحرك بعد ذلك قاصدا « عم على الشربتلى » .. حيث يتوقف أمام البرطمانات الزجاجية الشفافة .. المليئة بالليمون والخروب والعرقسوس والتمر هندى ، ويتحسس بيده « السطل » النحاسى الذى تندى سطحه المثلج بقطرات الماء ، ويطلب كوبا من الخروب .

ويرحب به « عم على » أيما ترحيب ويمد يده إليه بشوب الخروب ، فيأخذ فى تناوله بتمهل وترو .. وعيناه ترقبان نافذة « أم زكية »الكائنة أمام دكان الشربتلى ، فلا يكاد يلمح ابنتها زكية .. وقد عصبت رأسها بمنديل تدلت منه « الأوية »الملونة على جبينها ، وأخذت « تطرقع » باللبانة بين شدقيها ، حتى يبدأ عملية البصبصة ، وأرتجف أنا فوق حاجبيه وأهتز وأحس كأن أسفلى زلزال .. ويأخذ حاجباه فى الصعود والهبوط .. وأنا أتمايل كأنى بهلوان على حبل ، أطلب من الله السلامة .. وأخشى بين لحظة وأخرى أن أفقد توازنى ويختل مقامى ، فأهوى على الأرض .

وأخيرا .. وبعد أن أكون قد أنهكت من فرط الاهتزاز وتلعيب الحواجب .. تصل إلينا ضحكة رنانة منطلقة من شفتى « زكية »مستقرة فى قلب

حسن أفندى .. فتثبت حواجبه ، ويتصلب جسده ، كأنه « مريوح » ، وتظل عيناه عالقتين بالنافذة والكوب مثبت على شفتيه .. حتى تختفى الفتاة من النافذة .

ويتمالك الرجل نفسه ويستعيد قواه .. فيتحرك بعد ذلك متجها إلى شارع خيرت .. فإذا صادفه أحد باعة التين الشوكى ، توقف أمامه وأخذ فى انتقاء التينة بعد التينة حتى يزدرد عشر تينات ، ثم يستقر بعدها على مقعده أمام دكان الحلاق .

كان هذا هو برنامج صاحبى اليومى الذى لا يحيد عنه .. وكان فى جلسته عند الأسطى زكى .. لا يفعل شيئا سوى البصبصة .

وبصبصة حسن أفندى تكون بإحدى طريقتين : إما بصبصة فى حالة الثبات .. أو بصبصة فى حالة الحركة .

ففى الحالة الأولى .. يجلس حسن أفندى على المقعد منتفخ الأوداج .. وقد وضع ساقا على ساق .. وأخذ يرقب الغاديات والرائحات ، مستعينا فى مغازلتهن بلسانه وحاجبيه .

والرجل لا يستثنى فى مغازلته عجوزا أو صبية .. فهو مندفع فى بصبصته بلا تمييز ولا روية .. كأن عليه واجبا لا بد من تأديته .. وهكذا تندفع التشبيهات من فمه كأنها السيل .. « يا بت ياللى زى الجوزية » .. « يا باشا ياللى زى البغاشة » .. « هز يا وز » .. « أنا أموت فى المهلبية » .. « نظرة يا ست يا ام العواجز » .. « إيه ده يا سى محمد .. إحنا سمنّا قوى » .

ويستمر حسن أفندى فى مغازلته .. حتى تمر به امرأة تدخل فى « مزاجه » وتثير نشوته فينتقل من حالة الثبات إلى حالة الحركة ، ويتحول من المغازلة الشفوية إلى المغازلة العملية .. فيترك مقعده ويهرول وراء المرأة .. ويظل يطاردها حتى بيتها .. وأحس حينذاك بالعرق يتصبب دونى وأرانى قد تزحلقت حتى صرت فى مؤخرة رأسه وأخيرا يعود من حيث أتى .

ورغم هذه المغازلات من حسن أفندى .. ورغم جريه فى الشوارع وراء النساء ، فقد كنت أعلم أن واحدة فقط هى التى تسيطر على تفكيره ، وتتحكم فى زمام قلبه .. وهى « زكية »بنت « أم زكية » .

* * *

خرج حسن أفندى من باب الدار .. وانتظرت أن يتجه إلى « المقلة » كما يفعل كل يوم .. فيحشو جيوبه باللب والفول ، ولكن لم يفعل .. بل رأيته قد تجاوز المقلة .. واتجه إلى دكان المعلم حسونة الحلوانى ، وأخذ ينقل بصره فى محتويات الدكان .. من بسبوسة ، وكنافة ، وجوزية ، وعلب ملبن ، وملبس ، وشربات .

وأخيرا طلب من المعلم حسونة أن يزن له رطلا من البسبوسة ، وآخر من الكنافة ، وأن يلفهما له مع علبتين من الملبن ، وخرج الرجل من الدكان حاملا اللفة .. وأنا فى دهشة مما ينوى أن يصنعه بذلك ، وزادت دهشتى عندما رأيته يتجاوز حانوت الشربتلى ، ثم ينتقل إلى الرصيف الآخر ، ويدخل بيت أم زكية .

إذاً فهذا هو الأمر الجلل الذى ينوى فعله .. وهذه الحلوى هدية للفتاة .

ما شاء الله .. أية جرأة تلك التى أصابت الرجل .. وماذا تراه مختلقا من أسباب للزيارة ؟

وصعد الرجل الدرج ثم توقف أمام باب الشقة ، ونقر الباب بأدب فأجابه صوت نسائى : « مين » ؟

وفتح الباب .. فإذا بنا أمام زكية وجها لوجه .

كان أول ما لفت نظرى ونظر صاحبى .. فى زكية هو مجرى العبير من نهديها فلقد كانت الفتاة ترتدى قميصا واسعَ فتحة الصدر بحيث أبدى ما بين النهدين فى وضوح وجلاء .

ووقف حسن أفندى مبهوتا مأخوذا ، وقد ثبت بصره على صدرها ،

ومضت لحظة وهو لا ينبس ببنت شفة .. حتى صاحت به الفتاة :

ـــ ده إيه يا ختى ده .. ما تتكلم !! عايز إيه !!

وتكلم حسن أفندى فأنبأها فى صوت متلجلج أنه يريد الست أم زكية .

وعادت الفتاة تسأل متخابثة :

ـــ نقول لها مين ؟

ـــ حسن .. حسن أفندى المناويشى .. جاركم ومفتش مراجيح القاهرة بوزارة الشؤون الاجتماعية .

وعلا صوت من الداخل يصيح :

ـــ اتفضل يا سى حسن .. أهلا وسهلا .. خليه يخش يا بنت فى أودة المسافرين .

وأفسحت البنت الطريق وسارت أمام حسن أفندى وقد انتقل بصره من نهديها إلى ردفيها .. وقد أخذا يهتزان فى رجرجة منتظمة داخل القميص المتسع .

وأخذت أطل على الفتاة من فوق رأس الرجل ، وقد أصابتنى أنا الآخر النشوة .. إننى ما توقعت قط أن أراها بمثل هذا النضج والامتلاء .. إن الرجل والله معذور .

وعلا صوت أم زكية مرة أخرى يصيح :

ـــ اعملى قهوة يا بت لسى حسن ، دى خطوة عزيزة .

وخرجت زكية من الحجرة وحسن أفندى محملقا ببصره مأخوذا مذهولا . وأنا حائر فيما ينوى الرجل طلبه من المرأة .

وبعد لحظات أشرقت عليه أم زكية بأكداس اللحم والشحم التى علت جسدها والكحل الذى أغرق عينيها .. والأساور التى رصت فى معصمها .. ولسانها الذى لا يهدأ فى فيها لحظة واحدة .

وبدأت المرأة حديثها مرحبة بحسن أفندى بقولها :

ـــ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. داحنا زارنا النبى يا سى حسن أفندى .

— أهلا بك يا ست أم زكية .. محسوبك حسن أفندى المناويشى مفتش ...

— عارفاك يا خويا عارفاك .. وهوا فيه كام حسن أفندى فى حتتنا .. اسم الله عليك وعلى مقامك .. دانت نورت البيت .

— الله ينور عليكى .

— يا مرحبا .. يا مرحبا .

واستمر الطرفان يتبادلان التحيات بلا توقف ، وكنت على حال من القلق ، جعلنى أضيق ذرعا بهذه التحيات المتتالية كأنها طلقات مدفع ماكينة .. وتمنيت لو يدخل صاحبنا فى الموضوع رأسا ، حتى أعرف أى أمر جلل ، قد دفعه إلى المغامرة بدخول بيت أم زكية .

ولم يكن هناك شك فى أن إقدام مثل صاحبنا الذى أستقر على رأسه على دخول بيت مثل بيت صاحبتنا التى تستقر أمامى بطياتها وثنياتها .. أمر يعتبر فى الحقيقة مغامرة كبرى .

حقيقة أن حسن أفندى رجل بصباص .. وحقيقة أن مظهر الست زكية لا ينم على كثير وقار أو حشمة ، ولكن ذلك لا يمنع من اعتبار دخوله بيتها مغامرة .. لأن قدرة حسن أفندى فى مسائل البصبصة قدرة نظرية ، وأسلحته فى معارك الغزل لا تعدو الحواجب واللسان ، وهجماته فى ميادين الغرام لا تزيد على العدو فى الطرقات والتوصيل إلى الأبواب .

والست زكية ليست بالمركب السهل ، ودخول دارها قد يكون هينا لبصباص عملى « ابن حنت » .. أما السيد حسن أفندى ، الخائب إلا من بعيد ، الغريق فى شبر من الماء ، فقد كان دخوله للدار بمثابة إلقاء بنفسه إلى التهلكة .

وأحسست بالعرق يتصبب من أسفلى ، وأخذت أنزلق هابطا رويدا رويدا على الأذنين ، وازداد الارتباك بصاحبى بعد أن انتهى سيل التحيات المتدفق من فم المرأة ، وران الصمت ، وأخذت المرأة تتطلع ببصرها إلى حسن أفندى ، منتظرة أن يفصح عن رغبته .. وكان على صاحبنا أن يقول شيئا ، ولكنه لم يفعل سوى

أن مد يده ودفعنى إلى الوراء ثم إلى الأمام بحركة عصبية ، كأنما يريدنى أن أتحدث عنه .

وما لى أنا وهذا الشأن .. أنا لم أقل له اذهب إلى أم زكية وما كان لى أى علم بما ينوى أن يفعله .

قل ما شئت يا حسن أفندى .. تحدث .

وأخيرا تحسست يده علبة الحلوى التى بجواره .. حيث وجد فيها منفذا إلى حين ، فدفع بها إلى الست أم زكية قائلا :

ـــ اتفضلى يا ست .. حاجة بسيطة .. على ما قسم .. شوية حلويات .

ـــ من يد ما نعدمها ، وليه يا خوية التعب ده ؟

ـــ تعبك راحة يا ست أم زكية ، إحنا خدامين .

ـــ والنبى أمير وزى السكر ، ولا يجيب الحلو إلا الحلو .

واحمر وجه حسن أفندى ، حتى أصبح فى مثل لونى ، وبدأ سيل آخر من المديح المتبادل .. ساعد على إنقاذه من ورطة الصمت .

وأخيرا انتهى المديح كما انتهت التحيات .. وعادت المرأة تتطلع ببصرها إلى وجه حسن أفندى .

تكلم يا سى حسن الله لا يسيئك ، قل ماذا تريد ؟ وأرحنى وأرحها .

وأخيرا ، وبعد جهد مشكور ، أخذت شفتاه تنطبقان وتنفتحان استعدادا للحديث ، ثم بدأت الكلمات تخرج من بين شفتيه مضطربة مترددة ، قال لا فض فوه :

ـــ والله يا ست أم زكية ، أنا أصلى طول عمرى .. من غير مؤاخذة ..

ثم كف الرجل فجأة عن الحديث ، وأخذ يحملق بعينيه إلى الباب ..

معذور .. معه حق .. لقد حملقت أنا الآخر .. فقد بدت زكية تحمل بين يديها صينية عليها شراب أحمر أغلب ظنى أنه شربات ورد .

إن هذه الزيارة لن تنتهى على خير ، هذا الأحمق القابع أسفلى لن يخرج من هنا

سليما .

لقد أقبلت زكية بعد أن أبدلت ثوبها .. لا بأكثر احتشاما ، بل أكثر عريا .

كان الثوب الجديد أحمر إنجليزى فى لون الشربات الذى تحمله ، وكان بلا أكمام ولا صدر ، ولا شىء أبدا .. لقد تدلت ذراعاها بيضاوين ناصعتين ممتلئتين من فتحة كم متسعة أبدت كل ما حول منبت الذراعين من أعلى الكتف إلى أسفل الإبط .

وتقدمت الفتاة نحونا وكأنها خطر داهم .. وأخذت تقترب من صاحبنا الواجم الشارد الفاغر الفم ، ثم انحنت مقدمة له كوب الشربات .

وفى انحناءتها المقصودة انحسر صدر ثوبها وهبطت كرتا ثدييها مستندتين على صدر الثوب المنحسر وخرج شعاع البصر من عينى حسن أفندى متجاوزا الشربات عابرا فتحة الصدر ، مستقرا على الكرتين البيضاوين .. المتدليتين فى تثاقل كأنهما كرتا عجين .

وازدرد الرجل ريقه ، ومد يدا إلى الكوب ويدا إلىّ يدفعنى بها إلى مؤخرة رأسه ، وانطلقت منه تنهيده طويلة .

وما لى أنا ، إنه وحده السبب ، ليتحمل نتائج مغامرته ، إنه ليس حمل زكية ولا أم زكية .

وعندما تناول الكوب ، استدارت متجهة إلى الباب ، وحسب الخطة الموضوعة لم تكد تسير بضع خطوات حتى انحنت لتلتقط شيئا من الأرض .. لست أدرى ما هو .. على أية حال ، الشىء لم يكن بذى أهمية ، المهم هو الانحناءة نفسها .. فكما انحسر صدر الثوب فكشف الثديين ، انحسر ذيله ، فكشف عن الساقين ، وما أدراكم ما الساقين .

أما عن اللون فأبيض مخدوم ، أعنى أبيض بياضا ممسوحا كالرخام .. ليس به أثر لمسام ولا شعيرات ، أما عن التركيب أو الكسم ، فامتلاء مسحوب إلى أسفل مع غمازتين فى باطن الركبة ، واستدارة دقيقة فى الكعب ، وقد بدا جزء

من باطن الفخذين بادى الاكتناز ، ناصع البياض .. تتخلله شعيرات من عروق دقيقة متشعبة من غمازتى ثنيتى الركبتين .

يا هوه !!

كان ذلك هو لسان حال صاحبنا ، وقد وضع شفتيه على كوب الشربات ، وعينيه على كيزان العسل .

واختفت زكية .. وحسن أفندى ما زال محملقا والكوب فى يده لم يذق منه قطرة .. وابتسمت « أم زكية » فى خبث ورفعت أحد حاجبيها .. وقد ملأتها الثقة فى نجاح خطتها الهجومية الرائعة بالثديين والساقين .. وقالت فى لهجة ملحنة :

ــ ما تشرب يا حسن أفندى يا خوية .. الشربات ده مش عاجبك والا إيه ؟

ــ عاجبنى ، عاجبنى أوى .. يا ست أم زكية .

ومرة أخرى ران الصمت وعادت أم زكية تنتظر .. كما ينتظر القط .. فأرا على وشك الوقوع .

وطال الصمت بصاحبنا وهو غريق فى وجله واضطرابه وأخيرا قالت أم زكية :

ــ خير يا سى حسن أفندى خير .

ــ خير يا ست أم زكية .. أنا أصلى جاى .. علشان .. أصلى كنت بقول لو كان ممكن ...

ــ إيه هوا بس اللى لو كان ممكن ؟

ــ أتجوز بنتك زكية .

يا نهارك أسود .. يا حسن أفندى !.. كده مرة واحدة .. جواز خبط لزق !.

ويبدو أن المرأة لم تكن تتوقع قط أن يبلغ انتصارها هذا الحد ، فقد بدت عليها دهشة سرعان ما أخفتها ثم قالت فى لهجتها المنغمة :

— يا سلام يا حسن أفندى .. غالى والطلب رخيص .. زكية ، وأم زكية ، وأهل زكية كلهم فداك .

ولم أدر ما قال حسن أفندى بعد ذاك .. فقد كان فى حالة ذهول وارتباك ، ولم أكن أقل منه ذهولا ولا عجبا .

وهكذا اتضح فى النهاية أن صاحبنا الغبى قد أتى ليطلب القرب من أم زكية .

ودهشت وأصابنى حنق على الرجل ، فقد كنت أعلم أن القرب من أم زكية ، وزكية ، شيء غير مأمون العاقبة ، وأن البعد عنهم كما يقول المثل غنيمة .

لا أطيل عليكم .. لقد رحبت المرأة بحسن أفندى أيما ترحيب ، ولم تمض بضعة أيام حتى حدث القرب فعلا .. وانتقلت أنا وصاحبى وبقية الكراكيب إلى بيت أم زكية .

مرت الأيام ، وبدا لى أن حسن أفندى لم يعد كما عهدته من « العياقة » والانشراح ، فقد أضحى موضعى الدائم فى رأسه هو المؤخرة .. وهو الموضع الذى كنت أستقر فيه عندما يصبح فى حالة ضيق وتبرم .

وفى ذات يوم عدنا إلى البيت .. وقذف بى صاحبى فى ضيق ، فاستقر بى الحال على أحد المقاعد ، ودخل هو إلى حجرة النوم .. فاصطجع فى الفراش وعلا شخيره .

ونظرت حولى فأدهشنى أن أجد هناك طربوشا آخر قد استقر على مقعد آخر ، وتملكنى الأسف ، فقد أدركت أن حسن أفندى قد مل صحبتى وابتاع لنفسه طربوشا جديدا ، وأنه ينوى أن يطردنى من خدمته .

ولكن أسفى قد تحول إلى حيرة شديدة عندما أبصرت برجل يخرج من داخل دولاب الملابس .. ويتسلل على أطراف أصابعه .. ويتقدم إلى فيضعنى على رأسه ، ويترك طربوشه لحسن أفندى .

واستقر بى المقام على الرأس الجديد .. ومنذ ذلك اليوم وأن لا أرى حسن أفندى أو أسمع عنه .. حتى كان ذات يوم أرسلنى صاحبى الجديد إلى المكوجى ،

وجلست مع غيرى من الطرابيش نقطع الوقت بالدردشة .. وقلت لجارى فى معرض القول :

ـــ هذه أول مرة أحضر إلى هنا . إنى لم أبصر المكوجى قط عندما كنت على رأس حسن أفندى !

ونظر إلى الطربوش فى دهشة وقال متسائلا :

ـــ ماذا تقول ؟ أنت كنت على رأس حسن أفندى ؟

ـــ وأى شىء فى ذلك يبعث على الدهشة ؟

ـــ لأنى أنا أيضا مررت برأس حسن أفندى !

وهنا تدخل طربوش ثالث ، فأنبأنا بأنه قد جرب رأس حسن أفندى بضعة أيام ، ثم تدخل طربوش رابع وخامس وسادس ، حتى اتضح أنه ليس هناك طربوش فى المحل إلا ومر على رأس حسن أفندى .

وقلت لنفسى متسائلا :

« ماذا جرى لصاحبى المسكين « البصباص »لقد طالت صحبتى له دهرا طويلا ؟! ماذا يجعل الطرابيش لا تستقر على رأسه .. وتتبدل عليه الواحد تلو الآخر » .

ركبــة الحنش

هذا حديث شبشب .. عليم بما فى الخدور ، وما فى الصدور .. قد يتشابه حديثه مع ما تخبئه بطون غيره من الشباشب .. وقد يظن أحدهما أننا نعنيه بحديثنا .. ويتهم من أصحابه بأنه هتك سترها وأذاع ما خفى من أمرها .. ولكننا نؤكد أن شبشبنا هذا من نسج الخيال .. وأنه ليست له أية صلة ــ من قريب أو بعيد ــ بشباشبهم الموقرة ، وعلى ذلك فلسنا مسئولين عما قد يحدث من تشابه أو التباس .

وأخيرا خرجت من الظلمات إلى النور ، وتربعت على عرش أطل منه على هذا الحشد العجيب من المخلوقات الآدمية تمر بى رائحة غادية .

لقد تم خلقى منذ بضعة أيام .. وأصبحت مخلوقا أنيقا فاخرا .. بهذه البشرة الناعمة اللامعة من الستانيه الأزرق ، وتلك « الفيونكة »التى تحتل مكانها فى صدرى ، وهذا البوز الرفيع الدقيق ، والباطن اللين الطرى ، والكعب العالى المرتفع الذى يرفع هامتى ويزيد قدرى ويملؤنى غرورا وكبرياء على غيرى من شباشب العباد التى لا كعب لها ولا بوز ولا فيونكة .

وجلست فى ركن من « الفاترينة »الزجاجية الأنيقة .. وسط خليط من الأحذية والشباشب ، التى اختارها صاحب المتجر لتعرض فى الفاترينة .. وأخذت أرقب المارة والمتسكعين فى شارع فؤاد الذين لا عمل لهم إلا التطلع إلى واجهات الحوانيت والتأمل فى معروضاتها .

وظلت الوجوه تتواتر علىّ .. ما بين محملقة وعابرة .. ومتمنية وزاهدة ..

ويائسة وحالمة .. حتى أطل علىّ وجهها أخيرا .. وقد بدت فيه نظرة إعجاب .. ولمحتها تدفع صاحبها بمرفقها فى جانبه لتلفت نظره الذى شغل بتتبع ساقين تعبران الطريق .

والتفت إليها متسائلا عما تريد فأشارت إلىّ قائلة :

ــ شبشب لطيف .

وأحسست بالفخر والغرور .. فالشباشب كالغوانى .. يغرها الثناء .

وقلت لنفسى مجيبا تحيتها : « ده من أصلك » .

وهز الرجل رأسه موافقا على أنى « لطيف » .. وهم بمعاودة السير .. ولكنها نظرت إليه نظرة تأنيب .. فهى لم تقصد بتقريظى أن يجاوبها بتقريظ مثله .. بل رمت إلى أكثر من ذلك .

وتوكل صاحبها على الله ، ودخل وإياها الدكان .. وبعد لحظة امتدت إلىّ يد من الداخل ، ثم أدخلت فى قدمها لحظة على سبيل التجربة وسمعت التاجر يقول « مبروك » .. وبعد هنيهة ضمتنى ظلمة معتمة داخل صندوق من الورق تمددت فيه .

ولم أبصر شيئا مما حدث بعد ذلك .. حتى أحسست بنفسى أخرج من الصندوق .. وأترك ظلمته الدامسة .

وتلفت حولى فإذا بى فى غرفة نوم أنيقة فاخرة الرياش توسطها فراش مكسو بالستان الأزرق وأبصرت النوافذ مغطاة بستائر زرقاء ، وبدا لى كل ما فى الغرفة قد غلبت عليه الزرقة فأدركت سر اختيار صاحبتى لى وأن لونى هو الذى أغراه بى .. إنها لا شك امرأة فنانة .

وكانت تجلس وحيدة فى الغرفة على مقعد صغير منخفض أمام التسريحة ، وقد نضت عنها ثيابها إلا من قميص داخلى أزرق شفاف .. وأمسكت بى تتأملنى برهة ثم دستنى فى قدمها وشغلت عنى بعد ذلك بتأمل وجهها فى المرآة .

وضايقتنى رائحة القدم لأول مرة إذ لم تكن تتناسب كثيرا مع تلك العطور

التى تفوح من الزجاجات التى رصت على التسريحة .. ولا حتى مع رائحة النفتالين التى كانت تفوح من الصندوق الذى كنت أرقد فيه .

وألقيت على القدم التى دست فىّ تحية مقتضبة .. إذ لم أحس لصحبتها كثير فرحة .. لقد كنت أتوقع أن أجدها خيرا مما هى .. لقد تصورتها طرية ناعمة منتظمة كقالب الزبدة .. ولكنى فوجئت بأصابعها المعقلة وبالكلو ينخس جانبى كالسكين .. وبباطنها الجاف وعروقها النافرة .

قلت لها متأذيا :

ـــ سعيدة .

ـــ سعيدة مبارك .

ـــ إنى أشم رائحة كريهة .

ـــ ستتعودها بمضى المدة .

ـــ ولكن هذه العطور المرصوصة ما فائدتها ؟.

ـــ لا فائدة منها .. إنها لا تجدى معى نفعا .. الحمد لله .

ـــ على ماذا ؟.

ـــ على ما صرنا إليه .

ـــ لست أرى بك ما يستحق الحمد . اللهم إلا الحمد على المكروه .

ـــ وهذا الطلاء الأحمر الذى يزين أظافرى .. ما رأيك فيه ؟

ـــ لا بأس .. ولكن الأظافر نفسها .

ـــ ما لها ؟

ـــ مش ولا بد .

ـــ ماذا كنت تقول إذاً لو رأيتها فيما مضى .. وقد كستها الحنة ولوثها الطين والأتربة ؟

ـــ حنة وطين وأتربة فى أظافرك أنت ! ومن أين لك هذا ؟.

ـــ وأكثر من هذا .. الحمد لله على المانيكير والبديكير ، الحمد لله على

وجودك .

ـــ وجودى أنا ؟!

ـــ أجل .. بعد طول الحفاء .. وبعد طول العدو على الأسفلت المحرق فى هجير بؤونة .. والوقوف على البلاط الرطب وسط مياه الغسيل فى الرطوبة .. رحم الله القبقاب .. لقد كان أفخر ما ارتديت وقتذاك .. كنت أطرقع به على سبيل التفاخر وانتزاع الإعجاب من خدم الحى وبوابيه .. أبعد كل هذا لا تريدنى أن أحمد الله على وجودك أنت وأمثالك من علية الشباشب الأنيقة والأحذية الفاخرة والجوارب النايلون ؟!.

ـــ هذا أمر عجيب .. أنت قد عدوت على الأسفلت عارية حافية ؟. ونقعت فى مياه الغسيل .. قولى شيئا غير هذا .. إنك لا شك تسخرين منى .

وهنا سمعت صوتا أجش ينادى من الخارج :

ـــ زيزى هانم .

وكانت زيزى هانم ما زالت جالسة أمام التسريحة تفحص وجهها فى المرآة وتصلح الرتوش فأجابت بصوت ناعم ممدود :

ـــ حاضر يا شيرى .

وعدت أوجه القول للقدم التى أخذت تحرك أصابعها فى باطنى :

ـــ أجل .. أنا لا أستطيع أن أصدق شيئا من قولك هذا .. هل يعقل أن زيزى هانم التى لا يحتمل مزاجها إلا اللون الأزرق تجرى حافية على الأسفلت .. وتنتزع إعجاب الناس بطرقعة القبقاب ؟.. هذا منتهى التشنيع .

ـــ أى تشنيع ؟.. أنت شبشب غشيم مستجد .. أنا لم أقل غير الحقيقة .

ـــ ولكن كيف يحدث هذا ؟ كيف ينقلب الحفاء .. إلى نايلون ؟

ـــ ليس هذا وقته .. سأخبرك بعدين .

وكانت زيزى هانم قد أتمت إصلاح الرتوش ونهضت فارتدت روبا من الحرير الأزرق وغادرت الحجرة .. وسارت تطرق الأرض طرقات منتظمة

ذكرتنى بطرقعة القبقاب التى قالت القدم إنها كانت تنتزع به إعجاب خدم الحى .

وتوقفت أمام باب أطلت منه قائلة :

ــ اتفضل يا شيرى .

ونظرت إلى « شيرى »فوجدته قد حجب عنى كل شىء عداه .. أو بوجه أدق .. عدا كرشه المنتفخة التى تدلى فوقها الصديرى ذو الكتينة الذهب .

وجلس الاثنان على المائدة .. وحجب عنى المفرش الذى تدلى من فوق المنضدة كل شىء عدا ساقيها وساقيه .. ووجدت الفرصة سانحة لأن أعاود حديثى مع القدم علّى أستبين منها بعض ما خفى علىّ .

قلت لها :

ــ خبرينى كيف كانت زيزى هانم تعدو حافية على الأسفلت ؟

ــ لم تكن وقتذاك قد أضحت زيزى هانم .. فقد كانت زكية الحنش .

ــ زكية إيه ؟.

ــ الحنش .. بنت المعلم مئ مئ بياع الكسبة !!.

ــ ما هذا الذى تقولينه ؟. حنش .. ومئ مئ .. وكسبة !!.

ــ طبعا .. أنت شبشب ذوات .. لا تعرف الكسبة ولم تسمع عن مئ مئ الحنش .. الله يجحمه .. لقد ذقت منه الأمرين .. طالما اكتويت بخيزرانته .. عندما كانت زكية تهرب من البيت الذى تخدم فيه .. أو كانت تتصرف فى بضعة قروش من أجرها .. ألا تحس بذلك البروز فى عرقوبى ؟.. إنه أثر التواء حدث لى عندما قفزت زكية من النافذة بعد أن كاد أبوها يقتلها من الضرب ذات مرة .. أفهمت لمَ أحمد الله .

ــ مفهوم .. ولكن ..

ــ ولكن ماذا ؟!

ــ كيف حدث هذا الانقلاب ؟ كيف أضحت زكية الحنش زيزى هانم ؟.

وهنا أحسست بقدم الرجل « شيرى »تقترب منى متسللة ثم وجدتها تضغط علىّ .. وأحسست أن القدم فى باطنى تتلوى من الألم .. وهمست بها فى خوف :

ــ ماذا يريد هذا الحيوان ؟.

ــ غزل .. هو دائما يبدأ غزله هكذا !.

وانسحبت القدم من تحت قدمه ولكنه عاد يقترب بساقه .. أو ساق الفيل كلها .

ووصل إلى صوته من فوق المنضدة يقول وفمه محشو بالطعام :

ــ عبد الحميد بك قال لى إن الفيلم مدهش .

ــ متى رآه ؟.

ــ رآه فى العرض الخاص الذى عرضناه له أمس .. لقد انتظرناك طويلا ولكنك لم تحضرى .. لقد قال إنك بلغت القمة .

ــ حقيقى !

وسمعت طرقعة قبلة .. أغلب الظن أنها منها هى لأن فمه كان فى حالة من الامتلاء لا تسمح له بالتقبيل .

وعدت أسأل القدم :

ــ لم تخبرينى بعد .. كيف حدث الانقلاب العجيب ؟. ماذا حدث لزكية الحنش بنت المعلم مأ مأ ؟

ــ مئ مئ .

ــ مئ مئ .. مأ مأ .. كله يتساوى .. نحن لم نغلط فى البخارى .. قولى ماذا حدث ؟

ــ هذا حديث طويل .

ــ دعينا نقطع به الوقت .. دعينا نتسلى .

وأحسست بها تنسحب منى قليلا وأبصرت بأصابعها تتلوى فسألتها :

ـــ ما بالك تتباعدين ، وما بال أصابعك تتلوى هكذا ؟

ـــ لقد أطبقت على .. ما لك تضغط على أصابعى هكذا .. حتى جعلتنى أضيق بك .

ـــ معك حق .. بعد طول الحرية والانطلاق على الأسفلت .. لا بد أن تضيقى بى .

ـــ أقصر لسانك .. ولا تكن قليل الأدب .

ـــ أقلت شيئا من عندى ؟.. ألم تعترفى أنت بذلك منذ لحظة ؟

ـــ أجل . ولكن هذا شيء مضى .. يجب أن تتناساه تماما .. وتنكره تمام الإنكار .. يجب ألا تذكر إلا أنى لم أتعود السير إلا على السجاجيد العجمى فى بيت بابا .

ـــ مئ مئ الحنش ؟

ـــ لا .. لا .. بابا .. محمد باشا الحنكاش .. صاحب عقارات وأطيان .. وسليل أكبر عائلات الدقهلية .. وابن ..

ـــ مفهوم .. مفهوم .. ابن زكى باشا الحنكاش .. الذى ينتمى إلى الدوحة الكريمة المفضلة .

ـــ تستطيع أن تقول هذا .. ويجب أن تذكر أيضا أن هذا النتوء فى العرقوب نتيجة للوقوع من على الحصان .. فى إحدى النزهات الخلوية فى العزبة .

ـــ والكاللو ..؟

ـــ من ضيق الأحذية الباللى .

ـــ والعروق .. والقشف .. والزرقان ؟

ـــ لا تذكر شيئا من هذا .

ـــ والرائحة ؟

ـــ تناساها .

ـــ لا .. لا .. كله إلا هذا .. أرجوك أن تبقى بعيدة عنى .. أجل ..

هكذا .. دعيني أشم نفسي .. إن البعد عنك غنيمة .

ـــ غنيمة يا عرة الشباشب .. خذ .

ثم عادت تندس فيّ بعنف وقلت مهدئا :

ـــ لا تريدين مزاحا ؟

ـــ أكنت تمزح ؟.

ـــ بالطبع .. ما دام قد حكم عليّ بعشرتك المؤبدة .. أأستطيع أن أضيع العمر معك فى خصام ؟. قولى ماذا حدث لصاحبتك زكية الحنش ؟

ـــ قلت لك انس هذا الاسم .

ـــ زكية الحنكاش ؟

ـــ زيزى هانم كفاية .

ـــ ماذا حدث لزيزى هانم ؟

ـــ هربت من بيت أبيها .

ـــ بيت أبيها ؟!.

ـــ أبيها ؟! أيها الغبى .. من قال لك إن لأبيها بيتا .

ـــ لم يكن له بيت !!.. الحنكاش باشا لم يكن له بيت ؟! أين إذاً كان يضع السجاجيد العجمى .. أكان يفرشها على الرصيف ؟

ـــ أيها الأبله .. لم يكن أصبح بعد الحنكاش باشا .. كان لم يزل مئ مئ الحنش .

ـــ ليكن مئ مئ الحنش .. أين كان يبيت ؟.

ـــ فى الإسطبل .

ـــ إسطبل ؟!!.

ـــ أجل فى الإسطبل .. غريبة هذه ؟

ـــ أبدا .. أبدا .

ـــ إذاً علام الدهشة ؟

ـــ لا شيء ...لقد كنت أظن أنه من بني آدم .. لم يخطر لى على بال أنها ابنة حمار .

ـــ حمار ؟.. من قال لك إن أباها حمار ؟

ـــ ألم تقولى أنت الآن .

ـــ أنا قلت هذا ؟.

ـــ ألم تقولى إنه ينام فى الاسطبل .

ـــ وهل كل من ينام فى الإسطبل حمار .. يا بن الحمار ؟

ـــ أنا ابن حمار ؟.

ـــ لا .. ابن عجل .. ابن معزة .. أستكون شيئا أكثر من هذا .

ـــ عيب اختشى إن أبى ميت .. ولا أحب أن يذكر أحد سيرته بالسوء .

ـــ ميت ؟!!.. أتريد أن يكون أبوك حيا .. لقد تعودت أن أعامل الشباشب هكذا .. أتعجبك المعاملة .. إذا كان شبشب سيخبرنى أن أباه ميت فكيف أسبه وكيف ألعن أباه ؟

ـــ على أية حال دعينا من هذا .. قولى لى كيف كان ينام المعلم مئ مئ فى الإسطبل وهو ليس حمارا ولا بغلا ولا حصانا .. ماذا كان يدفعه إلى هذا ؟

ـــ عمله .

ـــ أكان خادم إسطبل ؟

ـــ قطع لسانك .. خادم إسطبل ؟! المعلم مئ مئ الحنش على سن ورمح .. خادم إسطبل ؟

ـــ ماذا كان عمله إذاً .. قولى وأريحينى ؟

ـــ مدير شركة .

ـــ شركة ؟

ـــ أجل .. شركة نقل ؟ كان لديه حماران وعربتان كارو .

ـــ مدير شركة كارو ؟!. يعنى عربجى كارو ! والله يرحمه كان يملك وسائل

نقل أخرى .. يعنى ترمايات .. سكك حديد ؟

ـــ الله يرحمه ؟.. فال الله ولا فالك .. إنه ما زال على قيد الحياة .

ـــ كان ؟! وما زال يقوم بإدارة شركاته ؟

ـــ شخصيا بنفسه .. يسير وراء الحمار من مصر القديمة إلى مصر الجديدة .

ـــ وماذا يقول عنه الناس ؟

ـــ ومن أدراهم أنه أبوها !

ـــ ألا يزورها ؟

ـــ أبدا .

ـــ ألا تزوره ؟

ـــ أبدا .. أبدا إنها تسكته عنها ببضعة جنيهات من آن لآخر كلما هددها بإعلان أبوته .

ـــ شيء جميل .. إعلان الأبوة قد أضحى جريمة فى حق الأبناء !

ـــ فى مثل هذه الحالة .. نعم .

ـــ كنت أقول إنها هربت من البيت .

ـــ بيت من إذن ؟

ـــ بيت أسيادها التى كانت تعمل عندهم .. لقد هربت منه فى إحدى الليالى ، وصممت ألا تعود إليه ..

ـــ وماذا فعلت إذن ؟

ـــ هامت على وجهها ، واشتغلت ببضعة أعمال مختلفة كجمع الأعقاب ، والشحاذة .. ثم انتهى بها الأمر أخيرا إلى الاشتغال بالأعمال الحرة .

ـــ أجل .. اشتغلت حرة ؟

ـــ حرة .. ماذا تعنين ؟

ـــ أعنى حرة فى جسدها ، تفعل به ما تشاء .. وكان جسدها قد أضحى فى ذلك الوقت صالحا للبيع ، والإيجار ، وعرضته فى السوق .. فدرَّ عليها شيئا من

الربح .

ـــ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـــ استمرت فى عرضه حتى حلت الحرب .. فارتفع سعره ضمن بقية البضائع التى ارتفع سعرها .. واستطاعت بذلك أن تضع قدميها على أول درجات الكادر .

ـــ كادر ؟!

ـــ أجل .. كادر الأرتستات .

ـــ ألهن كادر ؟

ـــ بالطبع .. كادر ذو درجات وعلاوات .

ـــ لست أفهم !. لم أسمع عن هذا الكادر من قبل !

ـــ يبدأ الكادر بخادمة ، وهى تقابل عامل خارج الهيئة .

ـــ وبعد ؟

ـــ متشردة .. تقابل درجة ثامنة مخفضة .

ـــ وبعد ؟

ـــ تتدرج .. إلى فتاة شارع .. ومن فتاة شارع إلى أرتست حرب .

ـــ ومن أرتست حرب ؟

ـــ إلى أرتست صالة وهى تقابل تقريبا الدرجة الرابعة .

ـــ وبعد ؟

ـــ يحتاج الأمر لشيء من الكفاءة .

ـــ كفاءة ؟

ـــ أجل .. فبدلا من أن يكون عملها مجرد الجلوس مع الزبائن والفتح وتأدية الواجب .. يصبح عملها راقصة أو منولوجست .. وهو أمر يحتاج إلى موهبة فى تلعيب الوسط والأرداف .. أو فى الصراخ بصوت مقبول .

ـــ ما شاء الله .. وعندما تصبح راقصة ؟

— يحتاج الأمر بعد ذلك إلى واسطة .. أجل لا بد من الواسطة لكى تنتقل إلى الدرجة التى تليها .. فالموهبة وحدها لا تكفى .

— وما هى هذه الدرجة التى تليها ؟

— تقابل مدير عام .. وقد يصادفها الحظ وتضحى فى درجة أرفع من ذلك .

— لست أفهم .

— ترتقى إلى درجة نجمة سينمائية .. حرف جـ ثم ب ثم أ .

— أهذا يحتاج إلى واسطة ؟

— أجل .. وهذا هو ما حدث لصاحبتنا .. لقد صادفت الواسطة .

— ومن كان واسطتها ؟

— هذا الحلوف الكبير الجالس أمامك .. لقد كان الواسطة التى رفعتها من راقصة إلى نجمة .

— كيف ! أهو من كبار المخرجين ؟

— لا .

— من كبار الممثلين ؟

— لا .

— من كبار أصحاب الشركات السينمائية ؟

— لا .. لا .. لا شيء من هذا مطلقا .

— ماذا يكون إذن ؟

— تاجر خردة .

— تاجر خردة ؟! ألم أقل لك إنك أكبر « مشنعاتية » ؟ كيف يستطيع تاجر خردة أن يرفعها من راقصة إلى نجمة ؟

— رآها ترقص ذات مرة فى كباريه .

— ثم ؟

— أعجبته .. دخلت مزاجه .. فتح لها زجاجة بيرة ..

— وبعدين ؟

— زجاجة شمبانيا .

— وبعد ذلك ؟

— فتح لها هذا البيت ، ثم فتح لها شركة سينمائية وعمل لها فيلما لتكون بطلته . مسألة طبيعية جدا لا تعدو سلسلة من الفتوحات .. أما زلت ترى فى الأمر غرابة ؟

— كلا .

وأخيرا نهضت زيزى هانم و« شيرى بك » خردة إذ لا أعرف له اسما غير هذا .. فالهانم لا تدعوه إلا بـ « شيرى »، والقدم لم تذكر لى عنه إلا أنه تاجر خردة .

وبعد فترة راحة فى حجرة الصالون دخلا معا إلى غرفة النوم .

ولم أبصر شيئا بعد ذلك ، فقد دفعت بى القدم إلى أسفل السرير .

* * *

مرت الأيام والحياة تسير على وتيرة واحدة حتى بدأ الفيلم بعرض .

وفى ذات ليلة حضر خرده بك وقد بدت على وجهه أبلغ علامات اليأس .. وعلمت مما دار بينه وبين زيزى هانم أن الفيلم سقط سقوطا شنيعا وأنه قد خسر الجلد والسقط .

وفى الليلة التالية حضر إلى الدار شيرى جديد ولنسمه دوبارة بك ، فقد فهمت من حديثه أنه يملك أكبر مصانع الدوبارة والخيش ، وفهمت كذلك أنه ينوى أن يفتح لها هو الآخر شركة سينمائية ويخرج لها فيلما .

دخل الشيرى الجديد حجرة النوم .. كما دخل صاحب له من قبل ، واتخذت أنا مجلسى المعتاد تحت السرير .

وفجأة سمعت طرقات شديدة على الباب ونهضت زيزى فى فزع لترى من الطارق .

كان الطارق هو الشيرى القديم .. خردة بك .

سألها من الذى عندها .. فأجابته : « مش شغلك » . وصرخ فيها فصرخت فيه .. لعن أباها فلعنت سنسفيل أجداد أبيه .. صفعها صفعته ، ثم دارت المعركة . حامية الوطيس .. مستعرة الأوار .

ولم تخفنى المعركة فى أول الأمر .. بل لقد وجدت فيها شيئا يبعث على التسلية .. ما دمت أقف فيها موقف المتفرج .. المحايد .. أو غير المحارب .

ولكنى فجأة وبدون سابق إنذار وجدتنى أنتقل من القدم إلى اليد .. وإذا بى أستعمل استعمالا لم يخطر لى قط على بال .. فقد أصبحت سلاحا فتاكا للقتال .. ووجدت نفسى أخوض غمار المعركة فأهوى على أصداغ صاحبنا بالكعب .

ولم أكن أظن فى نفسى تلك القدرة على القتال .. فقد كنت السبب فى تحول دفة المعركة ، وتقهقر الخصم وانطلاقه لائذا بالفرار .

وعادت زيزى هانم بعد أن أغلقت الباب بشدة ودخلت غرفة النوم .. وأبصرت دوباره بك قد تكوم واختبأ فى ركن الغرفة ، ولكنه لم يكد يراها حتى ظهر مبرزا شجاعته ونظرت إليه وإلى أصداغه وإلى قفاه .. وأحسست برغبة جارفة فى القتال .. فقد فتح منظرهما شهيتى .. ولكن زيزى هانم دفعت بى تحت السرير .. وهمست للقدم قبل أن أفارقها : قولى لدوبارة بك إن اللقاء بيننا آت لا ريب فيه .

عبد البر أفندى

لم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية ، فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها . بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية .. وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج .

لو تجسدت الخيبة فصارت رجلا لما كان سوى « محمود أفندى عبد البر » .. فقد كان مخلوقا غير مستقل ، مسلوب الإرادة فاقد الحرية ، مقيدا إلى إنسان آخر .. يحركه كما يريد ، وهو صاغر راض .. لا يريد التخلص لأنه لا يعرف كيف يعيش إذا تُرِك لنفسه .

وكان هذا المخلوق الذى شد إليه محمود أفندى هى أخته « بهية » .. وهى مفتشة فى وزارة المعارف ، وقد تولت أمره منذ الصغر بعد أن ماتت أمهما ، ولم يكن الفارق فى السن كبيرا إلى الحد الذى يجعلها تسيطر عليه وتهيمن على كل أموره ، ولكن الخيبة التى رزىء بها جعلته يبدو كطفل فى حاجة إلى من يدبر أمره .. حتى بعد أن أضحى رجلا صاحب عمل وصاحب وظيفة .. لا يكاد يتصرف فى أتفه أموره ، ولولا بقية من حياء لانتهى الأمر ببهية هانم لأن تذهب به كل صباح إلى عمله وتعود به فى الظهيرة إلى بيته ، وماذا يمنعها من ذلك ؟! وهى التى تطعمه ، وهى التى تكسوه ، وهى التى تذهب به إلى هذه الزيارة أو تلك .. أو هذا الموعد أو ذاك .

ولقد أصابته نوبة التذكر والسخط على حالته هذه وهو يغادر الدار

بمصر الجديدة قاصدا إلى المترو ليحمله إلى شارع فؤاد. فقد طلبت منه أخته أن يسبقها إلى جروبى حيث دعت « على بك رحمى » مدير إحدى شركات الغزل الكبرى (الذى تعرفت عليه أخيرا فى إحدى الحفلات المدرسية) أملا منها فى أن يجد له وظيفة فى الشركة خيرا من وظيفته الحكومية التافهة .

ولم يكن سخط عبد البر أفندى ناتجا عن تعلقه بوظيفته الحكومية فقد كان هو الآخر متبرما بها كارها لها .. بل لأنه لا يرى فى وظيفة الشركة خيرا من وظيفته الحكومية . وأكثر من هذا .. كان سخطه لأنه يرى نفسه مخلوقا لا إرادة له ، وأنه يحرك هنا وهناك كأنه إحدى قطع الشطرنج ، وهو أجبن من أن يثور على حالته أو يعلن رغباته .. لقد كانت قصارى أمانيه حقا أن يترك وظيفته الحكومية ليفتح حانوتا لبيع طوابع البريد القديمة ، وهو يعرف حانوتا فى شارع فؤاد كان صاحبه يرغب فى بيعه .. أى مستقبل ينتظره لو انتهز الفرصة وأقبل على شراء الحانوت ؟ ولكن هل يجسر على أن يقول ذلك لأخته ، وهى التى تعتبره مخبولا لمجرد غوايته جمع الطوابع ؟

وركب صاحبنا المترو وقد شرد ذهنه ، وبعد لحظة خيل إليه أن هناك من يحملق فيه بنظراته ، والتفت فجأة فوجد عينين ترمقانه فى استطلاع ودهشة كأنه حيوان غريب ، ولم يكن صاحب العينين المحملقتين سوى طفل قد تمدد فى حجر أمه .

وأحس محمود أفندى بشىء من الحياء .. فقد أخجله أن يكون منظره غريبا أو مضحكا بحيث يسترعى نظر الطفل دون سائر خلق الله الراكبين فى المترو ، وضحك الطفل فزاد خجل محمود أفندى ، ولكنه حاول إخفاءه بأن ضحك هو الآخر فى وجه الطفل .. ليوهم من حوله بأنه هو البادئ بإضحاك الطفل ، وأخذ يشير إليه بأصبعه .

ولم تمض لحظة حتى توثقت عرى الصداقة بين الطرفين : محمود أفندى طرف أول ، والطفل طرف ثان ، وقد شجع محمود أفندى على هذه الصداقة ما لمحه

بطرف عينيه من ملاحة الطرف الثالث .. وهى أم الطفل ، وأخيرا وقف المترو فى محطته الأخيرة بشارع عماد الدين ، وأخذت الحسناء تحكم لف طفلها وحملته على ذراعها ثم مدت اليد الأخرى لتحمل الحقيبة القماش التى وضعت بها ملابس الطفل ، وبدا لمحمود أفندى أنه يجب أن يتقدم لمساعدتها فيحمل الحقيبة عنها .. فأجابته بابتسامة عذبة وتمتمت ببضع كلمات شكر ..

ووقف الرجل وسط الازدحام وقد حمل الحقيبة المنتفخة وأمامه المرأة وقد أخذت تتلفت حولها فى حيرة . وتنحنح عبد البر أفندى وتساءل فى تردد :

ــ أأستطيع أن أوصلك إلى أى مكان ؟

ــ أشكرك .. إنى أبحث عن زوجى فقد أنبأنى أنه سينتظرنى عند محطة المترو لكى يرافقنى إلى الطبيب .

ولم يدر عبد البر بم يجيب .. إن الموقف يستدعى أن يقول شيئا على سبيل « جبر الخاطر » .. فالسيدة ذاهبة إلى الدكتور فلا بد أن تكون مريضة .

ماذا يقول الناس للمريض ؟.. لا بأس عليك ؟!! الله يشفيك ؟ ربنا ياخد بيدك ؟ تقوم بالسلامة ؟!!

لا .. لا .. هذه كلها أقوال تبدو ركيكة مضحكة .. إن خير ما يفعل هو أن يهز رأسه بأسف ، وفى هذا الصمت الآسف خير معبر لتمنياته الطيبة للسيدة .

وكانت السيدة ما زالت مستمرة فى التلفت فى حيرة ، وأخيرا سألته فى لهجة نافدة الصبر :

ــ كم الساعة معك من فضلك ؟

وكانت الساعة فى جيب البنطلون الصغير .. ساعة جيب كبيرة ورثها عن أبيه ، ولما كان يحمل الحقيبة بيده اليمنى ، وإخراج الساعة من جيبه لا بد أن يحتاج إلى يده اليمنى .. فقد اضطر إلى أن ينقل حمله أولا إلى اليد اليسرى ثم يدفع أصابعه فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء . ويحه من غبى أحمق .. لقد نسى الساعة كعادته !

ماذا يقول للسيدة ؟: ستظنه بلا ساعة .. مع أنه يملك ساعة محترمة .. مشرفة . ولم يجد بدا من محاولة البحث فى جيوبه الأخرى حتى تدرك السيدة أن معه ساعة ولكنه لا يجدها ، وأخيرا .. وبعد أن نقل الحمل بضع مرات من يده اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى .. صاح فى أسف :

ـــ الظاهر أنى قد نسيت الساعة .. خسارة .. إنها ساعة فاخرة متينة لا تقدم ثانية ولا تؤخر ثانية .

ـــ على أية حال كان يجب أن يكون موجودا الآن ، لست أدرى ما الذى أخره ؟

ـــ الغائب عذره معه .. لا بد أن يكون قادما فى الطريق .

ـــ يجب أن أحدثه فى التليفون .. فربما ما زال فى المكتب .. إنه دائما ينسى نفسه .

وأخذت السيدة تدير بصرها فيما حولها .. وتنقلت عيناها بين الحوانيت على الرصيف الآخر وبين المارة المتزاحمين فى الطريق والعربات المتلاحقة ، وأخيرا استقر بصرها على الطفل ثم انتقل منه إلى عبد البر أفندى .

كان واضحا أنها فى حيرة من أمرها كيف تعبر الطريق المزدحم وتخوض وسط العربات بالطفل فى يدها ، ثم كيف تستطيع بعد ذلك أن تطلب النمرة وتتحدث فى التليفون .

وهنا تحركت النخوة والشهامة فى نفس عبد البر .

يجب ألا يقف هكذا متسمرا فى مكانه « كاللوح » .. يجب أن يعرض المساعدة ، وينقذ السيدة من حيرتها .. ولم يطل به التفكير حتى قال فى كرم وأريحية :

ـــ هاتى « المحروس »وتفضلى أنت للحديث فى التليفون وسأنتظرك هنا .. إنك لا تستطيعين أن تعبرى الشارع وأن تتحدثى فى التليفون وهو معك .

ونظرت إليه السيدة نظرة فاحصة .. لقد كان من المتعذر حقا أن تتحدث ف

التليفون والطفل معها ، ولكن هل يبرر ذلك أن تترك الطفل مع رجل لا تعرفه ؟

ولكنه يبدو رجلا طيبا مأمونا .. لا تبدو عليه مخايل شر أو سيما احتيال .. على النقيض إنه أقرب إلى البلاهة والعبط ، وليس هناك من بأس على الطفل إذا ما تركته معه .

وأخيرا استقر رأيها ومدت يديها إليه بالطفل .

وفوجئ عبد البر بالطفل فى يديه .

لقد عرض على السيدة من باب الكرم أن يحمل عنها الطفل ، ولكنه كان مجرد عرض لم يخطر له ببال وهو يعرضه أنه يمكن أن يصبح موضع التنفيذ .. لقد كان عرضه أشبه بعرض عابر سبيل يمر بحمال ينوء ظهره بحمل ثقيل فيقول له من باب المجاملة « عنك » فإذا بالحمال يقذف إليه بالحمل .

لقد كان خيرا لعبد البر أن يقذف بأى حمل ثقيل من أن يتولى حمل هذا المخلوق اللين الهش .

كانت المرة الأولى التى يحمل فيها طفلا ، وحمل الطفل فى نظره ليس بالأمر السهل .. إنه يحتاج إلى صنعة وإلى مهارة ومران .. هذا العظم الطرى ، لا بد أن يحمل بطريقة فنية وإلا تهشم وتفتت .. إنه يحتاج إلى مثل طريقة الحجاج بن يوسف الثقفى « شدة فى غير عنف ولين فى غير ضعف » .

لعنة الله عليه .. أى حماقة دفعت به إلى هذا المأزق الحرج ؟! إنه يعرف أنهم يحملون الأطفال برقة فوق الذراعين أو فوق الكتف ولقد كان يمكن أن يقدم على مثل هذه المحاولة لو أن كلتا يديه خاليتين ، ولكن ما حيلته وإحداهما مشغولة بالحقيبة .. إنه لم يعد أمامه سوى وسيلة واحدة ، هى أن يحمل الطفل كما يحمل الحقيبة تحت إبطه .

وهكذا طوى الطفل تحت إبطه كما يطوى حزمة فجل ، وأدار الطفل عينيه ونظر إليه فى دهش وتساؤل كأنما يقول له :

ــ ما هذا أيها الغبى .. إنى لم أتعود أن أُحمل هكذا .. لا تكن حمارا ، ودعنى

أعتدل .

ولم يملك عبد البر إلا أن يهز رأسه ويتمتم معتذرا للطفل :

ــ لا بأس عليك .. احتمل .. أنت ترى أنى لا أستطيع حملك خيرا من هذا .. إن يدى مشغولة بحقيبة ملابسك ، ولا أستطيع تهشيكك وتدليلك .. اصبر .. إن أمك آتية بعد برهة قصيرة .. إنها تحدث أباك فى التليفون .. فكن رجلا واحتمل .

ولكن الطفل الأحمق أخذ يتململ فى موضعه ويضرب بقدميه ..

وعاد عبد البر يخاطبه بقوله ناصحا :

ــ عيب .. عيب .. اثبت ، وإلا أفلت من يدى ووقعت على الأرض .. كن عاقلا .. ماذا ترانى كنت فاعلا ــ لو أن أحدا حملنى كما أحملك ــ لا شىء .. أتوكل على الله ، وأستقر فى مكانى .

وتصور نفسه محمولا بتلك الطريقة تحت إبط عملاق ، فأزعجته الفكرة وسرعان ما طردها من رأسه .

وعاد الطفل يضرب بساقيه ، وخشى عبد البر أن يفلت منه ، وتصوره قد سقط على الأرض وشجت رأسه وقتل لساعته .. ثم تصور المرأة قد عادت لتجد طفلها قتيلا ، وتصورها قد أنشبت أظافرها فى عنقه ، وتصور الصحف وقد ظهرت وبها عنوان بالخط العريض « سفاح عماد الدين »وبعناوين فرعية كتب فيها « موظف يقتل طفلا فتقتله أمه » .

ترى ماذا يمكن أن تفعل أخته بهية ؟! هل ستبكيه أم تتبرأ منه .. باعتباره سفاحا يجلب لها العار ؟

وروعته الأفكار فاشتد تمسكه بالطفل وضغط عليه تحت إبطه بشدة حتى لا يفلت وتقع المأساة التى دارت برأسه .

وهنا فاض بالطفل .. فانفجر باكيا صارخا .

هذه هى الفضيحة الكبرى .. لم يكن ينقص الموقف إلا هذا الضجيج الذى

يحدثه هذا الحيوان الصغير .. فيجذب إليهما أنظار المارة .

إنهم يرمقونه شزرا ، والبعض يضحك عليه .. كأنه « أراجوز » ، ولم يجد بدا من مخاطبة الطفل ونصحه بالسكوت ، فقال له فى لهجة جادة منذرة محذرة :

ــ عيب يا جدع .. اختشى .

ولكن الطفل لم يختش ، بل ازداد صراخا وازداد ضربا بساقيه ، وازداد تبعا لذلك ضغط عبد البر عليه .

وعاد عبد البر يقول ناصحا :

ــ هذا لا يصح .. لقد فضحتنا بين الناس .. اختشى يا سيدنا .. لا ترفص هكذا برجليك .. هذا ليس شغل رجال ..

وفجأة سمع صوتا يناديه فى دهشة ، والتفت خلفه فإذا بها أخته قد حضرت فى المترو التالى وبدأت تحملق فيه ذاهلة متسائلة :

ــ ما هذا ؟.

ــ طفل .

ــ أنا أعلم أنه طفل ، ولكن ما دخلك به ؟

ــ إنى أحمله عن أمه حتى تتحدث فى التليفون .

ــ أيها الأحمق .. اذهب وأعطه لها .. لقد تأخرنا عن الموعد .. أين ذهبت ؟

وتلفت الرجل حوله ثم أجاب ببساطة :

ــ لست أدرى بالضبط .

ــ ما شكلها ؟.. وماذا ترتدى ؟

ــ شكلها ؟ حلو . ولست أذكر بالضبط ماذا كانت ترتدى .

ونظرت إليه المرأة فى يأس وقالت :

ــ رجل فى مثل سنك يقف فى شارع عماد الدين حاملا طفلا وحقيبة سيدات ، وطفل من ؟. لا يدرى .. ماذا شكل أمه وماذا ترتدى ؟ لا يدرى .. ماذا أفعل بك حتى لا ترتكب أمثال هذه الحماقات .. أأربطك بسلسلة ؟!

كم مضى عليك وأنت واقف هذه الوقفة ؟
ـــ خمس أو عشر دقائق .
ـــ عشر دقائق ؟.. أؤكد لك أن المرأة لن تعود .. إنها « تلقيحة » وأغلب ظنى أنها لم تجد حمارا يمكن أن تلقى إليه بالطفل غيرك وتفر هاربة .. لا شك أنها خادمة أو مربية .. وقد هربت وألقت إليك بالطفل . هيا بنا إلى القسم نسلم لهم الطفل فليس لدينا وقت لهذه « المسخرة » .
ـــ القسم ؟! إن أمه لا بد ستعود بعد لحظة .. أمسكى الطفل حتى أبحث عنها فى أحد تلك الحوانيت .. إنى أذكر أنها كانت ترتدى فستانا أزرق .
وبدأ محمود أفندى يعدو من حانوت إلى حانوت يسأل كل من يصادفه عما إذا كان قد رأى امرأة مليحة ترتدى ثوبا أزرق ، وعلى حين غرة أبصر بتاكسى قد وقف على جانب الطريق وقد تدلى منه ذراع امرأة ذات ثوب أزرق فهجم على التاكسى صائحا وقد أمسك بذراع المرأة :
ـــ سيدتى .. لقد نسيت طفلك معى !
وأطلت من العربة امرأة عجوز ونظرت إليه شذرا وتمتمت فى دهشة :
ـــ مجنون !.
وأخيرا عاد محمود أفندى إلى أخته يخفى حنقه ولم يجد هناك بدا من أن يتبعها صاغرا إلى أقرب قسم بوليس . ووصلا إلى ميدان العتبة ودخلا قسم الموسكى ، ووقفا أمام الباشجاويش الذى أخذ يسألهما أولا عن اسمهما وسكنهما ثم أخذت المرأة تشرح القصة ، وعندما انتهت من شرحها نظر إليها الرجل ببلاهة دون أن يفهم شيئا وسألها فى غيظ :
ـــ ماذا تريدين إذا ؟
ـــ أريد أن أترك الطفل هنا ...
ونظر إليهما الرجل فاغرا فاه من فرط الدهشة :
ـــ تتركين الطفل هنا ؟.. لكى نضعه فى الزنزانة ... أم نختمه ونجعله حرزا ؟

أم نحضر له سريرا و نطلب من البيه المأمور أن يحضر لإرضاعه ؟. إننا لا نستطيع أن نعمل أكثر من مذكرة .. هنا قسم بوليس ، وليس ملجأ أطفال !.

ـــ أنا أعلم أنه قسم بوليس ، وأرجو أن تكون فى حديثك أكثر أدبا .

ولم يجب الباشجاويش بأكثر من أن يأمر جنديا بأن يطردهما خارج القسم .. فخرجا . ووقفا برهة فى حيرة ثم طلب منها محمود أفندى أن تذهب هى إلى الموعد حتى يعود هو مرة أخرى إلى محطة المترو لعل المرأة تكون قد عادت فيعطيها الطفل ويلحق بها فى جروبى .

وعاد محمود أفندى حاملا الطفل والحقيبة ، وعندما وصل إلى محطة المترو كانت صورة المرأة قد تبخرت من رأسه تماما فكان من العبث أن يحاول البحث عنها .. ولم يجد خيرا من أن يضع الحقيبة على الأرض ويجلس عليها ويضع الطفل فى حجره وينتظر .

وانتظر محمود أفندى ، وطال انتظاره .. حتى أحس بماء دافئ ساخن يسيل على ساقيه فأدرك أن الطفل قد (عملها ...) وأصابه ارتباك شديد . وأدرك أنه لا بد من تغيير ملابس الطفل وإلا أصابه برد ، وسحب الحقيبة من أسفله وافترش الرصيف وبدأ يبحث فيها عن غيار للطفل . فأخرج كل محتوياتها حتى عثر على ما يريد .. ثم بدأ يبدل ملابس الطفل ، وسط عاصفة من البكاء والصراخ ، وهو يزجره آونة ويدلله أخرى ، وأخيرا انتهى من مهمته الشاقة ، وبقيت مهمة أشق منها وهى إعادة الملابس التى تناثرت على قارعة الطريق إلى داخل الحقيبة .. وبدأ محمود أفندى عملية « الحشر »فإذا بالحقيبة لا تسع الملابس .

وأصابه اليأس واشتدت به الحيرة .. وبدأ يشك هو الآخر فى أن المرأة قد « استكردته »فتخلصت من الطفل بإلقائه إليه ، ومن غيره يمكن أن تجده المرأة .. أكثر خيبة وأشد حمقا ؟!!

ولم يسؤه الخاطر .. بل على النقيض .. أحس منه بفرحة ملأت قلبه ، إنه سيصبح مالك الطفل .. طفل لطيف لم يتعب فى الحصول عليه ، ويهيئ له هذا

الطفل الضئيل فرصة طيبة للثورة على أخته والتخلص من قيودها ، فيسترد حريته المسلوبة .. أجل .. سيعلنها أنه سيبتاع حانوت الطوابع ويستأجر الطابق الذى فوقه ليكون على مقربة من الطفل .

ونهض محمود أفندى من مكانه ، وقد عرته نشوة هزت جوانحه .. و« لفع »الطفل على كتفه ، وسار يهز الحقيبة فى يده من فرط الطرب .. إنه ما تخيل قط أن أمله يمكن أن يتحقق ، ولكن ها هو قد انتصر أخيرا .. مع هذا الطفل اللطيف .. ترى ما اسمه ؟. لا بد له من أن يطلق عليه اسما من الآن ، وليكن عنتر .. مثلا .. « إزيك يا سى عنتر .. مبسوط يا سى عنتر » !

ووصل إلى جروبى .. ولا أظن من اليسير بحال من الأحوال على أى إمرئ ... أن يصف حال أخته وقد جلست مع الرجل المحترم « على بك رحمى » .. تحدثه عن كفاءة أخيها ونبوغه ، وأنه مقبول فى وظيفته الحكومية .. ثم تبصر بأخيها المذكور وقد « هل »عليها من باب جروبى يخوض بين العيون المحملقة والأفواه الفاغرة مبتل البنطلون حاملا الطفل على كتفه بطريقة لم يسبق لها مثيل فى عالم حمل الأطفال .. وأخذ يهز الحقيبة .. المنتفخة المنبعجة ، وقد افتر ثغره عن أعرض ابتسامة يمكن أن يفتر عنها ثغر .

ومضت لحظة ذهول قبل أن تفيق المرأة لكى تعرف الرجل بأخيها ، ومضت لحظة ذهول أخرى قبل أن يفيق الرجل ليعرف أن هذا المخلوق هو أخوها العبقرى النابغة ، وجلس محمود أفندى وهو فى حالة رضاء تام عن نفسه وكان أول ما فعل هو أن مد يده فأمسك بإناء اللبن ودفع به فى فم الطفل قائلا فى غبطة « اشرب ياعنتر » . وأخذ عنتر يجرع اللبن وقد بدت عليه هو الآخر أتم حالات الهدو والاغتباط .

وبعد فترة صمت استعادت « بهية هانم »نفسها وبدأت تدخل فى الموضوع فأنبأت على بك أن محمود أفندى على أتم استعداد للتخلى عن عمله الحكومى فى سبيل خدمة الشركة ، ولكن محمود أفندى قاطعها على حين غرة بقوله ببساطة

ـــ لا .. لا .. لقد قررت أن أبتاع حانوت الطوابع وأن أستأجر الطابق الذى فوقه لأكون دائما على مقربة من عنتر .

وكانت صدمة ثانية للمرأة .. لم تفق منها هذه المرة إلا بعد أن استأذن على بك وتحركت وأخاها قاصدين إلى المترو للعودة إلى الدار .

وفى المترو جلست أمامه ترمقه بأقسى نظرات الحنق وقد وضع عنترا فى حجره وأخذ فى تدليله ، وبدأت هى تهمس إليه مفرغة جام غضبها :

ـــ أقسم أنك لست آدميا .. هل يمكن أن يفعل إنسان غيرك ما فعلت ؟! إنى لأعجب كيف بقيت إلى الآن فى عملك دون أن تفصل .

ونظر محمود أفندى إلى عنتر يستلهمه شيئا من الشجاعة ، ثم أجابها :

ـــ لا فائدة .. لقد قررت أن أستقيل وأبتاع الحانوت فأريحى نفسك .

ووصلا إلى الدار وهو يحس بسعادة تغمره .. فقد شعر لأول مرة أنه أضحى سيد نفسه وأن فروض السيطرة قد زالت عنه . وصعد السلم حتى وصل إلى الباب .. فإذا به يبصر منظرا جعله يهبط من علياء أحلامه ، منظرا أصابه بفجيعة ما بعدها فجيعة .. لقد أبصر أم الطفل تنتظر أمام الباب ومعها جندى بوليس .

وهجمت الأم تحتضن طفلها ناحبة باكية ، وهجم الجندى بدوره يقبض على محمود أفندى ليسوقه إلى القسم متهما بسرقة الطفل .

وكان على الأخت أن تقضى ليلتها فى محاولة الإفراج عنه ، وإفهام المأمور بأن محمود أفندى لا يمكن أن يسرق .. وأنه ليس إلا رجل خيبة .

وعاد محمود أفندى إلى داره فى الصباح .. بعد أن بات ليلته على الأسفلت ، وبعد أن تخلى عنه عنتر فى اللحظة الأخيرة .

ميدو قلب الأسد

كان ميدو رغم صغر سنه فى الثانية الثانوية ، وكان نموذجا للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تسميه أمه « معجون بمية العفاريت » . ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه مدرسا للغة العربية فى مدرسة شبرا الثانوية التي كان ملحقا بها .. فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه .. مصدر متاعب له ومورد سخرية .

الساعة السابعة صباحا فى أحد أيام ديسمبر .. منذ ما يقرب من الخمسة عشر عاما .. وقد خيم فى الجو ضباب ثقيل ، وسار عبد الحميد على شحاته أو « ميدو قلب الأسد » كما كان يسمى نفسه ويسميه رفاقه وعصبته .. يطوح بحقيبته إلى الأمام وإلى الخلف « على طول ذراعه » وهو يجتاز دهليز طوسون ، الموصل بين شارع روض الفرج وشارع طوسون المؤدى إلى مدرسة شبرا الثانوية .

وكان « دهليز طوسون » ممرا ضيقا لا يزيد اتساعه على مترين يخترق المزارع ، ويقوم على أحد جانبيه سور شائك من أشجار الفتنة وغيرها من الشجيرات الشائكة المتكاثفة المتربة المليئة بالزواحف والحشرات .. ويكون هذا السور الحد الشرقى لحدائق المانجو المحيطة بمدرسة شبرا والتى كانت فيما مضى سراى الأمير عمر طوسون ، أما الجانب الآخر من الدهليز فتمتد بجواره مزارع القصب والخبيزة والسلق .

وكان أهم ما يشغل « ميدو » فى ذلك الصباح ـــ غير مرجحة حقيبته ـــ ذلك الدخان المتصاعد من فمه كلما نفخ فى الهواء .. لقد كان شيئا مسليا حقا أن

يرى نفسه « مدخنا » كأنه وابور حلوان ، وأن يخرج الدخان من فمه بغير حاجة إلى أن يسرق من أبيه سيجارة يتسلى بتدخينها .

ووصل ميدو إلى نهاية الدهليز ، وقبل أن يلف على يمينه فى الطريق المؤدى إلى المدرسة عبر الشارع متجها إلى الساقية الكائنة فى الجانب الآخر من الطريق ووقف برهة يتسلى بمشاهدتها ويقذف بعض الحجارة فى البئر الذى ترفع منه الماء حتى نهره الفلاح من داخل الكوخ المجاور للساقية ونعته بابن الحرام ، فعدا إلى البوابة الكبيرة المفضية إلى طريق المدرسة .

ولم يكد يحتويه الطريق العريض حتى توقف برهة ومد يده فى جيب بنطلونه فأخرج زلطة مستديرة وانطلق يدفعها بقدمه حتى وصل بها إلى باب المدرسة عندما أفلتت من قدمه إحدى القذفات فأصابت ساق عم فضل البواب .

وصرخ عم فضل وأمسك بالزلطة ، وأقسم أن يعطيها لحضرة الناظر ويبلغه كيف كان ميدو يوشك أن يخرق بها عينيه .

وكان ميدو رغم صغر سنه ، ورغم أنه لم يتجاوز السنة الثانية بعد ، من أبرز الشخصيات وأشهرها فى مدرسة شبرا الثانوية ، وكانت سنه وقتذاك لا تزيد على الرابعة عشرة .. أبيض الوجه ، دقيق التقاطيع ، كبير الأذنين ، به شبه كبير من الأرانب ، غزير الشعر ناعمه ، أنعم الله عليه بشىء من الوسامة ، لو أحسن استغلالها لبدا من أبناء الذوات ، ولكنه لم يحاول ذلك قط ، فقد كان شديد البهدلة دائم العراك ، وكان نموذجا للشقاوة الصبيانية ، أو كما كانت تصفه أمه « معجونا بمية العفاريت »ولم يكن هناك ما ينغص عيشه سوى وجود أبيه الشيخ على شحاته مدرسا للغة العربية فى مدرسة شبرا ، فقد كان بعمامته وجبته وقفطانه ، مصدر متاعب له ومورد سخرية .

واجتاز ميدو فناء المدرسة بعد أن انتهت معركته مع عم فضل بعقد صلح مؤقت استعاد به الزلطة ، وسار يطوح بحقيبته وينفخ فى الهواء ، وقد تدلى شرابه على حذائه الأجرب ، ذى النصف نعل ، والدوبارة بدل الرباط ، وبدت ركبتاه

مليئتين بالجروح والكدمات .

وكان ميدو لا يرتدى قميصا قط ، بل يكتفى دائما بحشر الجلباب داخل البنطلون بعد أن يلفه جيدا حول وسطه ، وكان يرى فى ذلك توفيرا للقمصان وللوقت .

ووصل ميدو إلى فناء الجمباز ، حيث تقوم الأجهزة من عقلة ومتوازيين ، وحصان ، وحيث توجد فى أحد أركان الفناء الحجرات الخشبية التى يستعملها فريق الكرة فى خلع ملابسه ، وحيث توجد حجرة علوى أفندى مراقب الألعاب الرياضية التى كانوا يدخلون إليها بسلم خشبى مركب على نافذة .

واستقر ميدو على إحدى الدكك الخشبية فى الفناء .. ووضع حقيبته بجواره وأخذ يرقب بعينيه الباب الآخر المؤدى إلى فناء الكرة كأنه ينتظر مجىء شخص بين آونة وأخرى .

وكانت الوقت مبكرا ، والمدرسة قد خلت إلا من بضع فراشين تناثروا فى أرجاء المدرسة ، والضباب قد تكاثف فى فناء الكرة وبين أشجار الجوافة المتناثرة فى الفناء الخلفى .

وفجأة سمع صفيرا حادا فأجاب ميدو على الصفير بصفير مثله ، وبدا شبح قصير يتسلل من باب ملعب الكرة إلى فناء الجمباز مقبلا فى اتجاه ميدو .

ونهض ميدو يصافح الصديق ، وأفسح له محلا بجواره وبدأ الاثنان الحديث همسا .

كان القادم هو زكى إبراهيم جاد الله ، أو « أبو الزيك » .

وكان أبو الزيك ـــ رغم أنف أبيه ـــ وكيلا لجمعية التمثيل فى المدرسة ، فقد كان ممثلا بارعا ، لا يعيبه إلا قصر قامته ، وإن كان طول لسانه وشدة مكره قد عوضاه خيرا عن قصر قامته .

ولم يكن أبو الزيك فى مثل شقاوة ميدو ، بل كان أكثر منه هدوءا وتؤدة واتزانا ، وكان الاثنان يكونان شركة يعتبر أبو الزيك فيها العقل المدبر ، وميدو

القوة المنفذة .

وجلس أبو الزيك على الدكة بقامته القصيرة ، ورأسه الكبير ، وأنفه الضخم ، وعينيه المنتفختين ، وساقاه مدلاتان لا تصل قدماه إلى الأرض ، وقد بدا حذاؤه لامعا وشرابه مثبتا على ساقه بأستك وبدت حلته نظيفة لا أثر فيها لتلك البهدلة التى تكسو حلة صاحبه .

وبدأ أبو الزيك الحديث بلهجة تمثيلية وقور :

ـــ كل شىء قد بات على تمام الأهبة يا قلب الأسد .

ـــ ماذا فعلت بالأمس ؟

ـــ فعلت كل خير ، لم يعد ينقصنا شىء إلا الإقدام على الخطوة الأخيرة .

ـــ وعم سعيد ؟

ـــ لقد أضحى أطوع لنا من بناننا .. إنه لم يعد يشغل رأسه سوى عمارة سيف الدين ، وقد جلست معه فى حجرته بالأمس بعد انصراف الطلبة ، وأفهمته أن من الجنون أن يضيع عمره سدى ، وأن عمل بواب فى مدرسة عمل لا يليق بعم سعيد ، وأن مكانه اللائق هو فى عمارة سيف الدين ، وجلست أحسب له أجره ، وأجمع المبالغ التى سيدفعها له السكان ، عشرة جنيهات أجرا شهريا وبالقليل خمسين قرشا بقشيشا من كل ساكن ، خمسين قرشا فى مائة ساكن بخمسين جنيها وبإضافة الجنيهات العشرة تصبح ماهيته ستين جنيها ، أى أكثر من ماهية حضرة الناظر .

ـــ وصدقك ؟

ـــ طبعا ، وقلت له إن خالى سيف الدين صاحب العمارة سينتظرنى غدا فى الظهر لأجل الحديث معه فى هذا الموضوع ، ولكننى لا أعرف كيف أخرج ، فأجابنى بأنه يستطيع أن يخرجنى فى أى وقت أريد .

ـــ وأنا ؟

ـــ سيخرجك معى .

ـــ هل أخبرته ؟

ـــ لا ضرورة لإخباره .. سأقول له إنك معى وكفى .

ـــ أنت تعلم أن العلاقة بينى وبينه ليست على ما يرام وأننى بالأمس فقط خطفت عمته .

ـــ اطمئن .. دع أمر عم سعيد لى ، سأدعى أنك خارج معى لمقابلة عمك بهلر ، حتى إذا لم تنفع عمارة سيف الدين استبدلنا بها عمارة بهلر .. ولكن ماذا فعلت فى المسألة الأخرى .. إنها أهم ما فى الأمر ؟

ـــ لقد أعددت كل شيء .. واتفقت مع أم سيدة الغسالة أن أحضر لها الطفل لترعاه وترضعه حتى نأخذه منها ، وقلت لها إنه ابن فراش فى المدرسة ، توفى أبوه ومرضت أمه ، وإننا تطوعنا للعناية به .. حتى تبل أمه .. فنعيده إليها .

ـــ فكرة هائلة .. ولكن .. ألا تخشى أن تشى بنا أم سيدة ؟

ـــ ومن أدراها ؟ وما فائدتها من الوشاية ؟

ـــ ومتى سنبدأ الهجوم ؟

ـــ اليوم ظهرا ، نخرج فى الساعة الثانية عشرة من بوابة عم سعيد ، ونتسلل إلى البيت من الباب الخلفى .. وعليك أن تنتظر أمام باب الحديقة .. لتعطينى إنذارا إذا ما رأيت أحدا ، أما أنا فسأظل أيضا فى الحديقة حتى تحين الفرصة .. هذه مسألة تحتاج إلى سرعة وجرأة .. وأنت إنسان بليد بطيء .. هذه المغامرة الجريئة لا ينفع فيها غير قلب الأسد .

ـــ سأنتظر فى الخارج ، حتى أتسلم منك الطفل ، ماذا تنوى أن تفعل إذا صرخت الخادمة ؟

ـــ لا تتدخل فيما لا يعنيك ، سأعرف كيف أتصرف ، إن مهمتك تبدأ عند تسلم الطفل .

ـــ ولكن ألا تخشى أن يكون البيه الناظر موجودا فى البيت ؟

ـــ غير معقول ، إنه لا يترك المدرسة للغداء قبل الواحدة ، وأنا أعرف

الخادمة قد اعتادت أن تضع الطفل فى شرفة البيت المطلة على الحديقة ، وأعرف أن المهمة لن تحتاج إلى كبير عناء وحذر ، لقد أحضرت شال العمة معى فى الحقيبة .

— وماذا تنوى أن تفعل به ؟

— هذه أسرار المهنة ، إنك لا تدرى شيئا عن فوائده ولا أبى يدرى ، إن كل ما يفعله هو أن يلفه على عمامته ، أما أنا فسأعرف كيف أستفيد منه .. هل تعرف حبل الكشافة وفوائده ؟.. إن هذا خير منه .. سأستعمله أولا كقناع أخفى به وجهى ، فإذا حاولت الخادمة أن تصيح فسأكممها به ، وكذلك يمكننى أن ألف فيه الطفل .. أشياء كثيرة يمكن فعلها به .. على أية حال أعتقد أن المسألة ستنتهى دون حاجة إلى استعمال العنف ، فقد راقبت الخادمة بضعة أيام فرأيتها كثيرا ما تترك الطفل فى الشمس وتدخل إلى البيت لمغازلة عبد ربه الطباخ .. سأحاول أن أنتهز إحدى هذه الفرص وأخطف الطفل بهدوء دون أن يحس بى أحد .

— لو تمت العملية لأصبحنا من الأثرياء .

— أثرياء فقط ! إننا سنذل الناظر ، ونكسر أنفه .. ونحصل على كل مطالبنا منه .. سننتقم لأنفسنا شر انتقام .. هل كتبت الخطاب الأول ؟

— أجل .

— أعطه لى .. إذ يجب أن أضعه مكان الطفل عندما آخذه ..

وأخرج أبو الزيك ظرفا من جيبه وسلمه إلى ميدو وبدأ ميدو القراءة :

« من الزعيم المخيف قلب الأسد رئيس عصابة الموت بالحانة السوداء إلى البائس المسكين على عبد المتعال ناظر مدرسة شبرا الثانوية » .

وقلب ميدو شفتيه وقال معترضا :

— ولكن هل تظن أن من العقل أن نذكر فى الخطاب صراحة اسم قلب الأسد ؟! إن الناظر قد يعرفنا بمجرد اطلاعه عليه .

ــ ليس هناك من يعرف اسمك هذا إلا أفراد العصابة ، على أية حال من باب الحرص لنجعله مخلب القط ، أو عين العنكبوت .

ــ العنكبوت ليس له عين . لنجعله مخلب القط ، فهو أروع وما مسألة الحانة السوداء ؟

ــ هذه هى مقر ملتون توب ، وابن جونسون .. لا تخف من الرسالة .. فقد نقلتها بالضبط من الجزء الثانى من ابن جونسون .

ويعاود ميدو القراءة :

« لقد أخذنا طفلكم ، ولن يعاد إليكم حيا إلا إذا نفذتم الشروط التالية :

١ ــ إرسال مبلغ مائة جنيه .. وذلك بوضعها فى صندوق .. ودفنها تحت النخلة الموجودة فى نهاية دهليز طوسون .

٢ ــ إعطاء المدرسة إجازة شهر .

٣ ــ حذف مادة التاريخ الطبيعى والجبر والهندسة .

٤ ــ رفت على أفندى كفته الضابط بالمدرسة .

٥ ــ جعل وكيل فرق التمثيل رئيسا لها .

وهنا نظر ميدو إلى أبو الزيك وهز رأسه مغتاظا :

ــ أيها الأنانى ، إنك لم تذكر إلا نفسك ، أضف شرطا سادسا ، وهو أن يجعلنى كابتن فريق الكرة .

ــ ولكنك لا تلعب كرة .

ــ هذا لا يهم . لن يعاد الطفل إلا إذا أصبحت كابتن للكرة ، وأعطونى جزمة كنج ، وجوز أناكل ، وجوز شناجير .

ــ أمرك .

وتناول أبو الزيك الخطاب وهم بإضافة الفقرة الجديدة ولكن ميدو صاح به فجأة :

ــ أيها الغبى ، سيعرف الناظر من هذا أن لنا علاقة بالعصابة .. إننا يجب ألا

نذكر أى شيء يستدل به على أشخاصنا ، اشطب فقرة التمثيل والكرة ، واجعل المبلغ مائتى جنيه .

ــ لنجعله ثلاثمائة .. مائة جنيه للتعويض عن رئاسة فرقة التمثيل .

ــ أخف الخطاب الآن ، فإنى ألمح فرج أفندى قادما .

ــ اسمع .. لقد تذكرت .. أضف بندا بترقية فرج أفندى فهو رجل غلبان .

ــ أجل .. معك حق .

ــ وأضف أيضا ترقية الشيخ على شحاته ، فالأقربون أولى بالمعروف .

وبدأ الطلبة يتوافدون على الفناء ، وافترق الصاحبان على أن يلتقيا فى الساعة الثانية عشرة أمام بوابة عم سعيد .

* * *

الساعة الآن الثانية عشرة والحصة الرابعة لم تنته بعد .. وبدأ ميدو وأبو الزيك يحومان حول بوابة عم سعيد ، ثم دخلا إلى حجرته .

وجلس ميدو على دكة بجوار الرجل الأسود السمين ، وأخرج من جيبه علبة سجائر ، وأعطى سيجارة لعم سعيد وسيجارة لأبى الزيك ، ثم أخرج من الجيب الآخر فم سجاير ووضع به سيجارته وبدأ التدخين .

ونظر أبو الزيك إلى الفم فى إعجاب وسأل ميدو :

ــ من أين أتيت به ؟

ــ سرقته هو والعلبة من قفطان أبى ، إن اسمه منقوش عليه .. إنه فم ثمين أهدى إليه من الشيخ خميس .

ثم وجه القول إلى عم سعيد :

ــ سنخرج الآن يا عم سعيد لمقابلة خالى سيف الدين .

ــ ستخرج أنت وحدك .

ــ وميدو ؟!! إنه لا بد أن يأتى معى .

ولكن الرجل نظر إلى ميدو فى غيظ ، وهز رأسه فى عناد وإصرار .

وغمز ميدو أبو الزيك أن يخرج هو ويدعه ينصرف مع الرجل حتى يقنعه .

وخرج أبو الزيك من الباب .. وعاد ميدو إلى فناء المدرسة وقد بدا عليه الأسف والضيق ولم يتجه إلى الفصول ولكنه ذهب إلى دورة المياه وخرج منها وقد خلع الجاكتة والبنطلون وسار بالجلباب واضعا بدلته على كتفه ، ولمح عربة العيش تهم بالخروج من بوابة عم سعيد فعدا إليها بجوار الحصان كأنه صبى بائع العيش ، وبعد لحظة كان يقف مع أبو الزيك خارج المدرسة ، وأبو الزيك ينظر إليه فى دهشة شديدة .

* * *

لنترك قلب الأسد وزميله ينفذان مؤامرتهما ، ولنذهب إلى الشيخ على شحاتة مدرس اللغة العربية بعد بضع ساعات وقد أخذ يجمع كراريس التحضير وهو يهم بمغادرة المدرسة ذاهبا إلى البيت ولا يكاد الرجل يفتح الباب ، حتى يبصر الناظر وقد اقتحم عليه الغرفة فى هياج شديد ، ويصيح به :

ـــ أين الولد أيها المجنون ؟ أين هو قل لى ؟ إنك لا شك قد جننت ، ما هذا الهراء ؟!

ثم يدفع إليه بالخطاب .

ويذهل الرجل ويقرأ الخطاب وهو لا يفهم منه شيئا .. ويستمر الناظر فى هياجه الشديد صائحا :

ـــ رجل فى مثل سنك يلجأ إلى مثل هذا الجنون ؟.. أتريد الترقية بمثل هذه الوسائل الصبيانية ؟ أتخطف أولاد الناس من أجل درجة ؟ إنك لا شك قد جننت ! أين الولد ؟ أين الولد ..؟

ـــ أى ولد يا سيدى الناظر ؟ أرجوك أن تهدأ ، إنها لا شك وشاية أو نميمة .. إنى لم أغادر المدرسة قط .

ـــ لا فائدة من الإنكار .. انظر ، أليس هذا الفم لك ؟ أليس هذا شال عمتك ؟ لقد وجدنا الفم ملقى بجوار عربة الولد فى الشرفة ، ووجدنا شال العمة

قد ربط به الباب حتى لا تستطيع الخادمة فتحه لتعدو وراءك وتستعيد الطفل .. إن الخادمة تقسم أنها رأت طرف جبتك وأنت تعدو بالطفل .

ـــ حرام عليك يا سيدى الناظر ، أقسم لك أنى لم أفعل شيئا من هذا .

ـــ إذن فلا بد أن ألجأ إلى البوليس .

ـــ أرجوك أن تهدأ وتفهمنى ما حدث .. اجلس قليلا لنتفاهم .

ـــ أجلس !؟ ابنى مفقود يا أستاذ ، وتقولى اجلس لنتفاهم ؟! ابنى ضايع .. مسروق .. مخطوف !

ـــ كان الله فى عونك .. إنى أقدر مشاعرك .. ولكن أرجوك أن تهدأ .. حتى نستطيع التفكير قليلا .. نبئنى كيف حدث الحادث ؟.. وأين كان الطفل ؟.. وكيف وجد الشال والفم ؟

ـــ لست أدرى شيئا عن التفاصيل .. لقد كنت جالسا فى مكتبى عقب فسحة الغداء حوالى الساعة الثانية تقريبا .. عندما فتح باب الغرفة ووجدت عبد ربه الطباخ يندفع إلىّ زائغ البصر ، أصفر الوجه .. ويطلب منى الذهاب إلى البيت لأن بهاء ابنى قد سرق والسيدة تكاد تجن .

ـــ معذورة .. كان الله فى عونها ، وماذا فعلت أنت ؟

ـــ انطلقت بلا وعى وراء الطباخ .. وعبرت فناء الكرة وأنا أهرول ، وفى لمح البصر كنت فى حديقة البيت .. فإذا بزوجتى تندفع إلىّ صارخة وهى أشبه بالمجنونة .. وحاولت عبثا تهدئة روعها .. فقد كنت أنا نفسى فى حاجة إلى من يهدئ روعى ، ولكنى تمالكت جهدى وسألتها عما حدث فأنبأتنى أن سنية الخادمة كانت تجلس بالطفل فى الحديقة .. وكانت هى فى الدور العلوى ، فلم تشعر إلا والخادمة تصيح بأعلى صوتها « الحقونى . الحقونى . الحرامية سرقوا الولد » .

ـــ كيف سرقوه .. هكذا فى رابعة النهار وأمام عينيها ؟ هذا شيء لا يصدق !

ـــ لقد قلت لك إنهم هجموا عليها من باب الحديقة ثلاثة رجال بجلابيب

وشيخ معمم .

— ولماذا لم تصرخ وتستنجد ؟

تقول إنها ذهلت ، وأن الدهشة والخوف عقدا لسانها ، وأنهم هددوها بالقتل إن هى صرخت .

— وهكذا سرقوا الطفل أمام عينيها وهى ساكتة دون أن تبدى أية استغاثة ؟

— لقد صرخت .

— بعد أن فروا ؟

— هكذا تقول .. وهى تقول أيضا إن الشيخ المعمم قد ربط الباب بشال عمامته حتى لا يفتح .. وأنه قد ترك هذا الخطاب فى سرير الطفل ، وقد سقط منه هذا الفم وهو يهرول به إلى الخارج .

— وهذا الشيخ مفروض فيه أن أكون أنا ؟ ما شاء الله وهكذا قد انقلبت على آخر الزمن لأكون سارق أطفال ، المجرمة بنت المجرم .

— من هى ؟

— ومن تكون سوى الخادمة ، أؤكد لك أنها شريكة فى الجريمة .. وسأثبت لك سوء نيتها وكذبها .. بما لا يقبل أدنى شك .

— كيف ؟

— سأدلك بواسطة الشهود .. على أنى لم أغادر المكتب طوال فسحة الظهر وأنى كنت منهمكا فى تصحيح الكراريس وسأذهب معك إليها .. فإذا قالت لك إنى لم أكن ذلك الشيخ .. فماذا يكون رأيك ؟

وبدت الحيرة على وجه الناظر .. ولكن الشيخ شحاته جذبه من يده قائلا :

— هيا بنا أولا نرى الخادمة ، ونناقشها .

وسار الاثنان يستحثان الخطى إلى بيت الناظر ، ووقفا فى الحديقة يستجوبان الخادمة ، ومن وراء الباب كانت تصلهما نهنهة الأم .

وأخذت الخادمة تشرح الحادثة وهى وجلة خائفة ، وأخيرا سألها الناظر :

ـــ هل تستطيعين تمييز الرجال إذا عرضوا عليك .

وأجابت الخادمة فى قلق وتردد :

ـــ أظن ذلك .

وسألها الناظر وهو يشير إلى الشيخ شحاتة :

ـــ هل هذا هو الشيخ المعمم الذى كان يصحب الرجال والذى رأيت طرف جبته ؟

وزاد القلق على وجه الخادمة واشتدت حيرتها وأخذت تتفرس فى وجهه ، ولكنها ما لبثت حتى تشجعت وقالت فى تردد :

ـــ أجل .. إنه هو .

ثم ما لبثت حتى عادت تؤكد :

ـــ أجل .. أجل .. إنه هو بعينه .

ـــ أرأيت يا سيدى الناظر .. ألم أقل لك .

ووقف الناظر يقلب البصر فيما بينهما ، وقد ازدادت حيرته وشكوكه .. وأخيرا قال فى لهجة حازمة :

ـــ على أية حال .. وأيا كان السارق ، سأعطى لها مهلة ربع ساعة ، وإذا لم يعد الطفل فسأبلغ النيابة .

وهنا تدخل عبد ربه الطباخ صائحا :

ـــ لا داعى للكذب يا سنية .. قولى الحق . إنك لم تكونى مع بهاء ساعة أن خطفوه .. لقد كانت تسألنى عن الساعة فى المطبخ وتركت الطفل فى الحديقة ، فلما عادت إليه لم تجده فى عربته ، وهى لم تر أحدا من اللصوص .. بل كل ما رأته هو الفم والخطاب والشال .

وصاح الناظر :

ـــ هكذا ؟!

وصاح الشيخ شحاته :

— ولِم لم تقولى الحق يا بنت الصرمة .. لِم تدعين على الناس كذبا وتتهمين الأبرياء ؟

وقاطعه الناظر قائلا :

— على كل حال .. الشال .. والفم والخطاب .

— أرجوك يا سيدى الناظر .. أنا لم أجن بعد حتى أفعل هذا .. ولكن دعنى أفكر قليلا : أين كان الفم .. فى الدرج .. وأين كان الشال .. فى الدولاب .. والخطاب .. ما سره .

ثم صمت لحظة وهو ينظر إليه وأخيرا قال :

— اللعين .. ابن اللعينة .. لا بد أن يكون هو الذى قد فعلها .

— من هو ؟

— عبد الحميد .. ابنى .. فلنبحث عنه ، ولنسأل عليه فى الفصل ، فإذا لم نجده فلا شك أنه هو الذى خطفه وسأعرف كيف أحصل عليه وأربيه .

واندفع الاثنان إلى فصل عبد الحميد ، فإذا بميدو جالس فى الحصة وقد بدا عليه منتهى الهدوء والبراءة والطيبة .

وجذبه أبوه من قفاه خارج الفصل ووقف هو والناظر يسألانه :

— أين الطفل ؟

— طفل ؟ أى طفل ؟

— الطفل الذى سرقته .. ابن البيه الناظر .

— أنا سرقت ابن الناظر ؟ وماذا أفعل به ؟ آكله ؟

ورأى أبوه أن يأخذه بالحسنى فقال متوسلا :

— يا بنى يا عبد الحميد .. أعد الطفل .. ولن يفعل بك أحد منا شيئا .

— قلت لك إنى لم أغادر المدرسة .

— وما رأيك فى هذا الخطاب ؟

وأمسك بالخطاب يقرؤه وهو يتصنع الدهشة وأخيرا هز رأسه وقال بأسف :

— وما لى أنا ومخلب القط .. كل هذا ليس لى به شأن .

وقال الناظر يائسا :

— ليس أمامى إلا تبليغ النيابة .

ولكن الشيخ شحاتة قال وهو يضرب سهمه الأخير :

— ليسمح لى حضرة الناظر بالذهاب إلى البيت فقد يكون المجنون ذهب به إلى هناك ؟

وقال الناظر فى لهفة :

— أجل ! أجل ! ربما قد فعل ذلك .

وذهب شحاتة إلى البيت ووقف يطرق الباب ولم تكد امرأته تفتح له حتى فوجئ بصراخها فى وجهه :

— يا ضلالى ، يا فلاتى .. هذا الولد ، إيه حكايته ؟ هل تزوجت وأنجبته دون أن أدرى ؟

— ولد ! الحمد لله ، هاتيه بسرعة .

— متلهف عليه ؟ وحشك ؟

— هاتيه أولا .

— لقد أعدته معها .

— مع من ؟

— مع أم سيدة الغسالة ، لقد قالت لى إنها ذهبت إلى بيتها فوجدته هناك وأنبأها الجيران أن ابنك عبد الحميد تركه لها لكى تربيه .

— عبد الحميد .. ابن الكلب . لقد كنت أعرف أنه هو الذى فعلها .

— طبعا ، هو الذى فضحك .

وأطبقت على زمارة رقبته ، ولكنه تخلص منها صائحا :

— اتركينى الله يستر عرضك ، إنه ابن الناظر وسيبلغ النيابة إذا لم أعده له بعد ربع ساعة .

وانطلق يعدو إلى أم سيدة .

وأخيراً أعاد الولد إلى أبيه ، وبقيت عليه مهمة أخيرة هى البحث عن ميدو .. قلب الأسد .

الذى كان يجلس تحت النخلة فى انتظار الفدية .

أم نجيــة

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية ..
وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها ـ أو ما انحسر عنهما الجلباب ـ كورنيشا لسروال ملون .
ولكن أيكفي هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟ ولكي نقول عنها « أم نجية » ؟

تعال معى نشاهد « أم نجية »فى أول فم (بضم الفاء) . تبدأ المعمعة بالتحضيرات الأولية .. حيث تنحنى أم نجية على وابور الغاز فتدفع فى جوفه بضعة أنفاس سريعة قوية متلاحقة ثم تمد يدها بالإبرة فتحشرها فى الثقب .. وتمر فترة قصيرة يبدو الوابور خلالها وقد كتمت أنفاسه وخبا أواره وانطفأ لهيبه .. ثم ترفع الإبرة .. فينطلق الدخان فى فحيح شديد ويبدو الوابور وكأنه قد نفس عن كربته بعد طول خنق وكبت .. وتسرع المرأة فتشعل عود ثقاب وتدفع به فى عجلة إلى ثقب الوابور الزافر الصافر ، فتنطلق النيران متأججة مستعرة ، ويدوى صوتها فى زئير وهدير .

وتزيح أم نجية الوابور جانبا ثم تجذب الصفيحة الفارغة فتدفع بها تحت الحنفية وتفتح الصنبور فتندفع المياه من فوهته وتتدفق هابطة إلى قرار الصفيحة محدثة مزيدا من رنين وصخب ومزيدا من ضجيج وقعقعة لو كان هناك ـ بعد صوت الوابور ـ من مزيد .

وتترك المرأة الصفيحة لتمتلئ بالمياه وتلتفت إلى سبت الغسيل ، وقد كدست فيه الملابس وتعالت فوقه مكونة منه كوما هرمى الشكل ينافس فى ضخامته أهرام

الفراعنة وتناثرت حوله بضعة مناديل وجوارب وخرق .

وزفرت أم نجية زفرة حارة وهي تقلب السلة بما فيها .. وأخذت تعبث فى الملابس بيدها باحثة فاحصة .. وكانت الصفيحة قد قاربت الامتلاء فنهضت من مكانها ورفعتها بين يديها ووضعتها على الوابور وبدأت تنتقى من الملابس ما يستحق الغلى فتكومه على حدة . ثم سحبت الطشت لترص فيه الفم الأول « ع البارد »واتخذت مجلسها أمامه مشمرة عن ساعديها حاسرة قميصها عن ساقيها .. وقد أحاطت بهما الطشت .

وتبدأ المرأة المعمعة .. وبيمينها سلاحها الماضى البتار قطعة من صابون الغسيل « أبو ميزان » .. تحك بها الملابس لتفنى ما علاها من أوساخ وبقع وعرق وأتربة .. وتثير بها من الرغوة البيضاء ما يملأ رحاب الطشت .. فتبدو كأنها زبد الموج فى بحر هائج مائج .

وتبدو أم نجية وقد انحنى ظهرها وأخذ ساعداها يتحركان فى الطشت حركة مستمرة منتظمة كأنها آلة لا تكل ولا تمل .

ولست أشك فى أن أول ما يطرأ على ذهن الإنسان حين يقع عليها بصره .. هو : لم كانت المرأة « أم نجية »ولم تكن « أبو نجية » ؟.

كيف أمكن حشرها فى زمرة النساء ؟.. وبأى حق نطلق عليها اسم الجنس اللطيف ؟.

ومن يكون الجنس الخشن إذا لم تكن أم نجية ؟.

هذه الوجه « القرودى » .. ذو العينين الضيقتين والأذنين الكبيرتين والأنف المفرطح والشفة العليا العريضة والسفلى المدلاة والأسنان المتناثرة والعنق الغليظ القوى المعروق المركب على جسد صلب متحجر « مقلحف »كأنه قد من صوان .. أو كأن العصارة التى به قد جفت فأضحى أشبه بجذوع الشجر التى لا تنفذ فيها البلط أو المناشير والتى لا تصلح إلا لكى تكون حطبا لنيران آكلة .

وهاتان الذراعان المفتولتان والساقان العجفاوان اللتان تستطيع أن تميز

تركيبهما عضلة عضلة ، وعرقا عرقا ، وهى تتحرك وراء طبقة الجلد السمراء الرقيقة .

أبعد كل هذا .. نقول إنها امرأة .. وجنس لطيف ؟

حقيقة أنها تعصب رأسها بمنديل بأوية .. وحقيقة أننا نلمح فوق ركبتيها ــ أو ما انحسر عنهما الجلباب ــ كورنيشا لسروال ملون .

ولكن أيكفى هذا لجعلها من الجنس اللطيف ؟.. ولكى نقول عنها « أم نجية » ؟!

وما قيمة منديل الرأس والسروال الملون فى أن يجعلاها « أم » نجية .. إذا كان « أبو » نجية .. يشاركها فيهما .

إى والله .. إن « أبو نجية » نفسه .. كثيرا ما ضبط متلبسا بالسروال الملون .. ومتعصبا بمنديل الرأس .

أفيستطيع المنديل والسروال بعد هذا أن يكونا علامة مميزة للجنس اللطيف ؟

لنترك « أم نجية » منهمكة فى الغسيل .. محنية الظهر .. متحركة الساعدين مفتوحة الساقين بين والوابور والصفيحة والطشت وأكوام الغسيل ، ولننطلق فى ربوع الدار لنبحث عن الفردة الثانية .. أو « أبو نجية » .

كان الزوجان .. « أم وأبو نجية » مثلا لنقيضين .. فالمرأة عبوس متجهمة لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهها ، والرجل مهزار خفيف الدم « ابن نكتة » لا يكف عن الضحك قط .. ولم يكن هناك ما يخيف الرجل وينغص عليه حياته كامرأته .. وكان الاثنان يعملان كخادمين فى بيتنا الكبير بحارة الروم بالدرب الأحمر ، وإنى أعنى بالبيت الكبير .. أنه كان كبيرا فقط .. لا فخما ولا وجيها ولا عظيما .. وهل هناك أكبر من بيت يحوى فى داخله مسجدا وضريحا .. يرقد تحت قبته ولى من أولياء الله الصالحين يدعى « الشيخ ريحان » .. يزوره الناس للتبرك ولوضع النذور فى صندوقه .

ولقد كان صندوق النذور هذا مبعث « تشنيع » بين الأصدقاء .. فلقد كانوا

يدعون أننا نعيش من نذور الجامع وأننا بنينا الضريح لكسب الرزق .

ألا يعتبر كبيرا ذلك البيت الذى يحوى بين رحابه مجاهل خربة .. لم نحاول استكشافها قط .. بدعوى أنها مسكونة !

هيا بنا ننطلق فى البيت الكبير .. ذى المشربيات والسراديب والدهاليز والدور المسروقة والمنادر والأقبية المظلمة ذات الجن والشياطين .. لنبحث فى كل ذلك عن أبو نجية .. وهى مهمة لو تعلمون عسيرة .. فالرجل لا يكاد يستقر له قرار فهو أشبه « بفرقع لوز » .. متواثب قفاز .

ها قد وجدناه أخيرا ، وقد تسلق التكعيبة ، وبدأ فى قطف « ورق العنب » .

وأى عجب فى ذلك ، والرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، وفى الشتاء على إبر الوابور ، ومشابك الغسيل والشحاذة .

مفهوم ؟!. أم تريدون بعض الشرح والتفصيل ؟

كان الرجل يعيش فى الصيف على ورق العنب ، فهو لا يكاد يستيقظ من النوم ويطمئن إلى أن أم نجية ، أو « أم قويق » كما كان يسميها قد غادرت المندرة الملحقة بالبيت التى كانا يسكنانها معا ، وصعدت إلى أعلى لترعى شئوننا وتقضى حوائجنا ، حتى يتسلل على أطراف أصابعه ويخرج إلى الحديقة المترامية الأطراف المشعثة المتكاثفة المهملة المتربة فيتسلق التكعيبة ويبدأ فى جمع الورق ، حتى يملأ حجره ، ثم يذهب إلى « الفسقية »الواسعة المهدمة ، فيغطس فيها الورق لغسله ويبدأ فى رصه ثم لفه فيما يتيسر من مناديل الرأس ، وينطلق فى الطرقات لبيعه ، مناديا « صباحي يا ورق العنب » .

ولا تستغرق عملية البيع سوى دقائق معدودات ، فهو لا يدقق فى السعر ، لأنه لا يريد أكثر من ثمن « القرعة » ، فلا يكاد يحصل عليه حتى يرمى ببقية الورق على قارعة الطريق أو يهبه لأى إنسان ، ثم ينطلق إلى أقرب « بوظة » .

ويعب «أبو نجية»من البوظة كفايته، حتى «يستمخ»أو — على حد قوله —

« يوزن راسه » ثم يعود إلى البيت مبسوطا أربعة وعشرين قيراطا ، مترنما مترنحا ، يضيء بياض أسنانه سواد وجهه ، ويهتز جسده الضئيل الأعجف من فرط الطرب ، وتلتف ساقاه المعوجتان النحيلتان إحداهما حول الأخرى ، وينثر النكات ذات اليمين وذات اليسار .

هذا فى الصيف ، أما فى الشتاء فالمسألة أعوص من هذا وأكثر تعقدا ، فالتكعيبة قد تجردت من أوراقها ، فحرمت « أبو نجية » من مورد رزقه السهل ، وأضحى الحصول على القرعة يحتاج منه إلى كثير جهد ومشقة .

ويفكر أبو نجية ، حتى يضنيه الفكر ، ثم ينتهى به دائما إلى أمر واحد ، هو أن أم نجية سترفض رفضا باتا أن تعطيه مليما واحدا ، وهو لا يستطيع أن يسأل أحدا من أهل الدار ، لأنها قد حرمت عليهم أن يعطوه شيئا ، وهم لا يجسرون أن يعصوا لها أمرا ، وهو كذلك لن يستطيع الوصول إلى كيس نقودها ، فهى تربطه فى تكة سروالها .

إذن لم يبق أمامه سوى أمر واحد ، وهو سرقة إبر الوابور ومشابك الغسيل .

أجل هذه أشياء يستطيع أن يسرقها منها دون أن تحس . وهكذا يبدأ أبو نجية فى جمع الإبر والمشابك ، والتسول على باب الضريح حتى يخرج من كل هذا بثمن القرعة .

لنترك الرجل يتواثب على التكعيبة كالقرد ليجمع فى حجره ورق العنب اللازم لبيعه ثم نصعد مرة أخرى إلى أم نجية .

المعمعة دائرة على أشدها ، نحن الآن فى « الفم » الثانى ، وأم نجية كزبانية جهنم تقلب الغسيل بالنشابة فى الماء المغلى وقد تصاعد حولها الدخان وسالت من وجهها قطرات العرق .

لم يكن أبو نجية وحده هو الذى يخشى المرأة ، بل كان أهل الدار كلهم يخافونها ، ورغم أنها كانت تقوم فى البيت بكل أعمال الخدم من غسل وطبخ وكنس ومسح وتنفيض فإنها لم تكن قط خادمة بل كانت مهيبة أكثر من أسياد

البيت ، وأذكر أنى لم أكن أخشى أبوى كما أخشاها .

كيف لا ، وجدى وجدتى وأبواى وأعمامى وعماتى يخشونها ويعملون لها ألف حساب ، لقد كانت خادمة جدى منذ الصغر وهى التى قامت بتربية أولاده جميعا ، ولها على أهل الدار حق التربية .

* * *

وعاودت أم نجية « الفم الثانى »وتبعته بالثالث ثم رصت الملابس « المعصورة » فى السبت .. وحملتها على كتفها .. وصعدت إلى السطح لتبدأ عملية النشر .

وشدت الحبال ومسحتها .. وبدأت فى النشر ، ومدت يدها لتأخذ كيس المشابك حيث تعودت أن تضعه ولكنها لم تجده ، وهنا عضت على نواجذها ، وانطلقت من فمها زفرة تهديد ونفاد صبر ، وصاحت بأعلى صوت تسأل عن المشابك ، فلم يجبها أحد .

ونظرت من أعلى السطح فوقع بصرها على أبو نجية ، وقد أقبل يترنح فى الحديقة بوجهه الأسود وجسده النحيل الضئيل وهو يصيح بأعلى صوته مترنما : كيد العواذل كايدنى .

وصرخت المرأة بأعلى صوتها ، منادية الرجل بصوت يشبه الزئير :

ــ أبو نجية .

ونظر الرجل إلى أعلى ثم هز رأسه ببساطة فى تساؤل عن سر هذه الضجة .

وعادت المرأة تهدر صائحة :

ــ هات المشابك قوام لحسن انزل لك ، أخلى يومك زى وشك .

وعاد الرجل ينظر إليها فى بلاهة ، وصاح ضاحكا :

ــ يا ام قويق .. يحمُّوا ابوكى فى كنكة .. أبوكى نشروه على الحبل من غير مشابك طار .. هع .. هع .. يا ام قويق قولى اشمعنى .

وهنا فاض بالمرأة غضبها ، وغلى مرجلها ، واندفعت الصرخات من فمها

كطلقات المدافع وصاحت به :

ــ والنبى واللى نبَّا النبى .. لافرَّج عليك اللى ما يتفرج ، يا حرامى المشابك ، يا اسود الوش .

وتركت الغسيل واندفعت على السلم هابطة كالقذيفة .. وقد أمسكت بيمينها نشابة الغسيل .

وبعد لحظة كانت تمسك الرجل من عنقه ، وتهزه فى عنف صائحة :

ــ فين المشابك ؟

ــ مشابك إيه يا ولية ؟

ــ مشابك الغسيل اللى سرقتهم .. عشان السم الهارى اللى بتحطه فى جوفك .. والنبى لاطفحولك .. انطق .. فين المشابك ؟

ــ سيبينى يا ولية .. ماشفتش مشابك .. المشابك بتوعك دول ما يلزمونيش فى الصيف .. العنبة مخضرة .. والورق كتير ، والأشيا رضا .

ولكن أم نجية لم تقتنع .. فالمشابك لا يمكن أن تضيع إلا إذا كان أبو نجية قد سرقها .

ورفعت يدها بالنشابة وبدأت الضرب ، وعلا الصياح .

وهبط أهل الدار جميعا على صوت الصياح ، وحاولوا تخليص الرجل من براثن المرأة عبثا فقد أقسمت ألا تتركه إلا إذا أعاد المشابك .

وبدأت المحاولات لإقناع « أبو نجية » بأن يعيد المشابك بالتى هى أحسن ، ولكنه جلس يبكى وأقسم أنه لم يرها .

واستمر الضرب .. واستمر الصياح .. حتى تمكن الأهالى فى النهاية من أن يخلصوا الرجل من يدها بعد أن كلت من فرط الضرب .

واقتنع الأهل أن أبو نجية مظلوم وأن المرأة قد افترت عليه بالضرب .. وحاولوا أن يقنوعها بأنه لم يسرق المشابك وأنه ليس فى حاجة إلى السرقة ما دام ورق العنب موجودا ومع ذلك فقد أصرت على أنه لم يسرقها سواه ، واستمرت

تضربه كل صباح حتى يعترف .

وهكذا أصبح ضمن أعمال أم نجية ، التى تواظب على أدائها يوميا .. علقة لأبو نجية « على الريق » تصبحه بها ، بغية استعادة المشابك .

وعندما أفكر الآن أجزم بأن الزوجين كانا على نوع من العته ، فالمرأة قد استمرأت عملية الضرب الصباحى ، والرجل قد تعوده حتى بات يستسيغه ولا يعترض عليه ، ولا يشكو منه كما يتعود المؤمن المصاب قضاء الله فيه .

إن المسألة قطعا لم تعد على مر الأيام مسألة مشابك مسروقة ، بل أضحت عادة ، وإن ظلت محتفظة من ناحية الشكل بمسبباتها الأصلية ، فلا يكاد يرتفع صياح « أبو نجية » فى الصباح ويتساءل أحدنا عن السبب ، حتى يجيبه الآخر ببساطة :

ـــ المشابك .

ولقد ضقنا نحن ذرعا بالضرب والصياح حتى قال جدى ذات يوم للمرأة زاجرا ، وكان أقدر أهل الدار عليها :

ـــ أنت يا ولية مش تبطلى بقى الزيطة اللى بتعمليها على الصبح .. كل يوم لازم تقلقى منامنا وتصحينا على صوت الصريخ والصوات .

ونظرت المرأة إلى الجد ، ولوت رقبتها مشيحة برأسها إلى الناحية الأخرى كأنها تتقزز من منظره وحديثه .. ولم تجب عليه بكلمة . ولكنها « زامت » كالحيوانات .. علامة على أن الحديث لا يعجبها .

وعاد جدى ينهرها بقوله :

ـــ أنت يا ولية .. أنت سامعة الكلام الى أنا بقوله ده والا لأ .

ـــ بتقول إيه ؟.

ـــ بقول لك كفاية ضرب بقى فى الراجل الغلبان المسكين .

ـــ مسكين ؟.. يا خى جه سكينة تخرط مصارينه ؟.. والمشابك اللى سارقها علشان السم الهارى اللى بيحرق جوفه برضه مسكين ؟

ــ ما قال لك إنه ماسرقهاش .

ــ ضلالى ابن ضلالى .. وكداب ابن كداب .

ــ ليه بس يام نجية .. وهو يسرقهم ليه .. وقدامه ورق العنب مالى التكعيبة .. الراجل يا دوبك ما بيعوزش غير القرش الأبيض ثمن قرعة البوظة .. واحنا فى الصيف والتكعيبة مكفياه وأشيته رضا ، فلزومه إيه بقى يسرق المشابك .. يعنى حايعمل إيه بتمنها ؟

ــ مين يعرف ؟ دا أصله غويط .. ما حدش يعرف له نيه .. يمكن راح يتجوز ؟.

ــ بتمن المشابك ؟!!.

ــ يعنى هوا حايتجوز إيه ؟ مش شحاته زيه . هو دا يستبعد عليه حاجة .. أنا مش فى الشتا اللى فات قافشاه رابط وابور الجاز فى دكة اللباس وخارج بيه .

ــ على العموم .. إذا كان على المشابك .. أنا جبت لك مشابك بدالهم .. ومستعد أجيب لك كل يوم دستة مشابك .

ــ أبدا .. لازم يرجع هوّا المشابك اللى خدها .. حاتنى وراه بالنشابة لغاية ما ادوبها على جتته .. أو يرجع المشابك بالتى هى أحسن .. يا نا يا هوَّا .

ويئس جدى من ردعها عن غيها .. واستمر الضرب واستمر الصراخ .. فلم يجد بدا من أن يحاول أن ينهى المسألة بواسطة الطرف الآخر المعتدى عليه .

وأذكر أنه هبط ذات مرة إلى المندرة .. وهبطت فى أعقابه .. وكانت ساعة ظهر وأم نجية منهمكة فى الطبخ فى أعلى الدار . وأبو نجية راقد فى ركن مظلم على قفص من الجريد وبالقرب من قدميه وعاء أشبه بقلة صغيرة من الفخار وضع فى أحد جوانبه قطعة من الغاب .

وأيقظه جدى فانتفض فزعا وبدأ الصراخ .

وصاح به جدى ضاحكا مهدئا :

ــ بس .. بس .. بتصرخ ليه ؟

وقال الرجل وهو يدعك أجفانه بيده وينتفض مرتجفا :

ـــ هي لسة مبتدئتش الضرب ؟.

ـــ لأ لسة .. ماتخافش .

ـــ أنا مش خايف .. خليها تضرب وتخلص .

ـــ طيب يا أخي ما توفر على نفسك الضرب ، وترجع لها المشابك .

ـــ ما خدتش حاجة .

ـــ على العموم ، خدت والا ماخدتش أنا حاجيبلك دستة مشابك ترجعها لها وتستريح .

ـــ مش مرجع لها حاجة أبدا .. وانا وهي والزمن طويل .. أما اشوف مين اللي حايغلب .

ـــ هي بتضربك مش عشان المشابك .. هي خايفة لتكون بعتهم وحاتتجوز بتمنهم .

ـــ أنا حااتجوز ؟ ليه اتجننت ؟ بعد اللي شفته من ام قويق .. اتجوز تاني !! ياأخي دول بيقولوا .. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. وأنا مش مؤمن .. الا في الحكاية دي بالذات .

ـــ يعني أنت مبسوط من العلقة اللي بتاخدها كل يوم ؟

ـــ لا مبسوط ولا زعلان .. أهي زي كل حاجة بنعملها في عيشتنا .. أنا ما دام عندي القرعة والجوزة .. أهي كل حاجة محتملة .

ولما لم يجد الجد فائدة من الحديث معه ، فوض أمره إلى الله .. ولم يجد هناك حلا .. خيرا من أن نعود نحن أنفسنا على علقة المشابك الصباحي ، كما كنا نسميها .

وظل الصياح يعلو من المندرة كل صباح .. حتى كان ذات يوم انقطع فيه الصياح ، فاعتقد أهل الدار أن الرجل لا بد قد اعترف ، وأعاد المشابك .. وانتظروا أن تصعد أم نجية حاملة المشابك .. ولكن أم نجية لم تصعد .. لسبب

بسيط .. هو أنها قد ماتت .

وفوجئ الأهل بموتها وتملكتهم الدهشة والحزن .

ولم يشكوا فى أنها راحت نتيجة ظلمها للرجل المسكين ، الذى اتهمته كذبا بسرقة المشابك وظلت تضربه كل يوم .

وخرج أبو نجية متسللا كعادته إلى التكعيبة فجمع منها ما تيسر من الورق ، وانطلق من الدار .

وبعد برهة رئى وهو يعود مترنحا كعادته ، ثم اختفى فى الحديقة ليظهر بعد لحظات .. وقد حمل كيس المشابك المسروق .

وبهت الأهل وسألوه فى دهشة :

ــ ولما المشابك كانت معاك المدة دى كلها .. مادتهاش ليه لام نجية ووفرت على نفسك الضرب ؟

ــ أصلها كانت ندر للشيخ ريحان .

ــ عشان إيه ؟

ــ عشان ربنا ياخد أجلها ويريحنى .

ثم رفع يديه إلى السماء وتمتم قائلا « الحمد لله » .

وتحرك أبو نجية مترنحا إلى الضريح ، وفى صندوق النذور ألقى بكيس المشابك .. وقرأ الفاتحة على روح « أم قويق »وعندما التقى بجدى بعد ذلك سأله ضاحكا :

ــ شفت بقى يا عم !! مين فينا اللى غلب ؟!

الـــواد عطوه

عطوه ؟! ولكن أين عطوه ؟
يا للحمق !! ويا للغباء !!
إن عطوة الآن .. لابد أن يكون غارقا فى أية « غرزة »أو على أحسن الفروض يغط فى نومه فى بيت خالته « أم نفيسة »بائعة الفول النابت فى سيدى زينهم فهو شديد التقرب منها فى هذه الأيام من أجل ابـــنتها « نفيسة » .

استيقظ « بيومى أفندى »على ضجيج الحمالين والركاب عندما وصل القطار فى النهاية إلى محطة مصر .

ومضت فترة وجيزة نفض عن نفسه خلالها غبار القطار ودعك وجهه وعينيه وتثاءب بضع مرات .. ثم خلع المعطف الأبيض الشبيه بمعطف الحلاقين .. والذى يلازمه فى كل سفره ليقى بذلته شر السفر .. وليصد عنها عوادى الغبار والهباب .. ويجعلها فى غير حاجة إلى كى أو تنظيف .

وبدأ الركاب ينزلون من الديوان ، ووقف هو على أطراف أصابعه ومد يده فجذب الحقيبة المنتفخة الموضوعة على الرف ثم طوى المعطف بعناية وفتح الحقيبة فوضعه فوق المنشفة والجلباب والملفات المليئة بالأوراق ، ثم حمل الحقيبة ، وهبط من القطار مندفعا بين أفواج الركاب المتحركين على الرصيف .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساء وميدان المحطة قد خفت فيه الحركة وبدت فيه بضعة تاكسيات متناثرة تصايح أصحابها بين آونة وأخرى :

« تاكسى يا بيه ؟ » .

وذابت جماهير الركاب فى الميدان وتشعبوا فى الطرقات والمركبات وعربات الترام . واتخذ بيومى أفندى طريقه إلى الأتوبيس الأزرق المتجه إلى الزيتون ، واستحث الخطى حتى يحجز لنفسه مقعدا قبل أن تشغل العربة بالركاب .

واستقر به المقام على المقعد ، ودس الحقيبة فى أسفله ، وأسدل زجاج النافذة حتى يتقى شر ريح صرصر كان يحس بها تنفذ إلى عظامه .

اطمأن بيومى فى مقعده ، وأعد النقود فى يده انتظارا للكمسارى ، وأحس بالدفء والراحة .. فعاد النوم يهاجمه بلا هوادة .

لم يكن الرجل قد تعود السهر إلى تلك الساعة المتأخرة ولا سيما فى ليالى الشتاء .. لقد كان الليل يوشك أن ينتصف وهو يحس بجسد منهك وذهن مكدود بعد أن أمضى اليوم كله فى عمل مستمر ، وكان المفروض أن يكون الآن راقدا فى الفراش ينعم بالدفء والراحة .. ولكن ما حيلته وقد خذله حسين ابن عمه الذى كان ينوى أن يقضى الليلة عنده فى طنطا وسافر فجأة إلى دمنهور .

لقد أحس بخيبة شديدة عندما طرق الباب دون أن يجيبه أحد ، وعندما أنبأه البواب أن حسين أفندى رحل إلى دمنهور وأنه لن يعود الليلة .

كانت الساعة تربو على السابعة .. ولم يكن أمامه سوى أحد أمرين : إما أن ينزل فى أحد الفنادق وإما أن يعود إلى القاهرة . ولم يطل به التفكير حتى استقر رأيه على العودة إذ لم يجد هناك مبررا لأن يغرم أجر الفندق بعد أن انتهى من قضاء حاجته .. ولم يعد به من حاجة إلى البقاء .

أجل .. لقد حصل على معظم ما يبغى الحصول عليه من أوراق لازمة للقضية ، ولم يبق إلا بضعة أوراق تافهة يمكن المطالبة بها بالبريد .. فهم ليسوا فى حاجة ملحة إليها فى الوقت الحاضر .

وأحس بيومى أفندى وهو يتنهد فى مقعده فى الأتوبيس بشىء من راحة الضمير .. فقد استطاع أن ينهى عمله فى يوم واحد .. ولا شك أن عبد الرحيم بك

سيقدر مجهوده خير تقدير ، وسيشكره على سرعة الحصول على الأوراق المطلوبة .. لأنه سيهيئ له وقتا كافيا لدراسة تلك القضية المزعجة المعقدة .

وهنا شرد ذهنه فى القضية ، وأخذ يستعرض ما يعرفه من تفاصيلها ، وأحس بقشعريرة تسرى فى بدنه .

لقد كانت جناية مروعة .. قتل فيها المجنى عليه بسكين حزت رقبته من الأذن إلى الأذن ، وتركت الرأس يتدلى من الجسد معلقا على بضعة عروق .

لقد شاهد بنفسه منظر الجثة ، وقد تجمدت الدماء من حولها ، وبدا المجنى عليه أشبه بخروف الضحية ، وقد وجد بجواره السكين التى ذبح بها .. سكين مطبخ مشحوذة السلاح ، مدببة الأطراف .

أى وحشية هذه التى دفعت القاتل إلى أن يرتكب تلك الفعلة المنكرة ؟.

ولِم ؟! وما هى الدوافع ؟

إن الرجل لم يكن شديد الثراء حتى يطمع قاتله فيه .. ولا كان بالرجل المشاكس حتى يقال إنه قتل لثأر قديم .

إن المسألة تخفى وراءها كثيرا من الأحاجى والألغاز ، أو من يدرى ؟

ربما كان الرجل قد ذهب ضحية ظن خاطئ وقد يكون القاتل لصا توهم بالرجل ثراء فسطا على داره .. فلما قاومه الرجل ذبحه ذبح النعاج .

على أية حال .. لقد حامت الشبهات حول البواب ، وألقى القبض عليه فعلا ، ولكن الرجل يبدو بريئا ويقسم أنه مظلوم .

وأحس بيومى بالأتوبيس قد توقف .. وفتح عينيه وحملق فيما حوله فاستطاع أن يميز أنه قد وصل إلى العباسية وأبصر بالساعة التى تتوسط الميدان .. فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة إلا ربعا .. بعد ربع ساعة سيصل إلى الدار وربع ساعة أخرى سيكون راقدا تحت اللحاف فى فراشه الدافئ ، وهو يستطيع أن يتأخر فى الاستيقاظ كما يشاء .. فيعوض سهر الليلة .

وأحس بيومى بانقباض فى معدته وحركة فى أمعائه ، وتلك أولى دلائل

الجوع عنده .

إنه لا شك جوعان .. بل جوعان جدا .. فهو لم يتناول لقمة واحدة منذ أن تناول غداءه فى أحد مطاعم طنطا فى الساعة الواحدة ظهرا .

عشر ساعات لم يتناول فيها لقمة واحدة ؟. هذا كثير !

لا بأس عليه .. إنه سيعوض معدته خيرا بعد طول الصبر والانتظار .. إن خادمه عطوة يستطيع أن يرضيها بطبق من البيض المقلى ، وشىء من الجبن والزيتون .

أجل .. أجل .. إنه يذكر أن فى النملية ما لا يقل عن عشر بيضات ، ونصف أقة جبن ، ونصف أقة زيتون ، وهو لا يعتقد أن الخنزير عطوة قد سطا عليها .. أو على الأقل لا بد أن يكون قد ترك له بعضها — خمس بيضات مثلا ، وبعض الجبن والزيتون — ولكن ترى هل سيجد هناك خبزا ؟ لقد سبق أن نبه عليه مئات المرات ألا يترك البيت بلا خبز ، وأنه لا بد أن يكون هناك رغيفان للطوارئ .

وهل يمكن أن يكون هناك طوارئ أكثر من هذا ؟

حمدا لله ، إن الرغيف الأبيض ينفع فى الليلة السوداء هذا إذا كان عطوة الحمار قد تذكر الأمر وقام بتنفيذه .

عطوة !! ولكن أين عطوة ؟!

وفجأة ضرب بيومى أفندى جبينه بيده .. كمن تذكر أمرا خطيرا .

يا للحمق .. ويا للغباء .. إنه لن يجد عطوة فى البيت . لعنة الله عليه من غبى ضعيف الذاكرة .. أو قد نسى أنه قد أعطى لعطوة إجازة اعتقادا منه أنه سيبيت ليلته فى طنطا .

إن عطوة الآن لا بد أن يكون غارقا فى أية « غرزة » أو على أحسن الفروض يغط فى نومه فى بيت خالته أم نفيسة بائعة الفول النابت فى سيدى زينهم .. فهو شديد التقرب منها فى هذه الأيام من أجل ابنتها « نفيسة » .

كيف يستطيع العثور عليه الآن .. أو كان لا بد له أن يحب فى سيدى زينهم ؟

هذا من فرط غبائه ، ومن غضب الله عليه .

إذا كان يعمل فى الزيتون فلم لا يحب فى الزيتون ، أو على الأقل فى كوبرى القبة .. أو فى منشية البكرى .

وفجأة مد بيومى أفندى يده وتحسس مفتاح الشقة فى جيبه حتى يتأكد من وجوده ، وإلا كان المصاب أخطر شأنا ، واضطر إلى كسر الباب ، أو قضاء ليلته فى هذا البرد بلا مأوى .

وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح عندما اطمأن إلى المفتاح ، وحمد الله الذى يلهمه دائما فعل الصواب .

ماذا يمكن أن يحدث لو لم يكن يحمل فى جيبه مفتاح الشقة ؟

وهنا توقف الأوتوبيس .. وحملق بيومى خلال الزجاج فتبين أنه قد وصل إلى المحطة التى يجب عليه النزول فيها .. فوثب من مكانه ، ودفع جاره بمنكبه حتى يخلى له الطريق قائلا فى عجلة : « عن إذنك » ، ثم مد يده فجذب الحقيبة من أسفل المقعد ، وهرول هابطا من الأوتوبيس وهو يصيح بالسائق محذرا بين آونة وأخرى « حاسب .. حاسب من فضلك » .

وأخيرا .. أنال بيومى أفندى قدميه ظهر الأرض .. وأحس بالاستقرار عليها .. وانتظر حتى تحرك الأوتوبيس ثم عبر شارع سليم إلى الرصيف الآخر .. ودلف فى أحد الشوارع المتفرعة التى تؤدى إلى السكة الحديد حتى وصل إلى مزلقان الزيتون ثم عبره إلى الناحية الأخرى .

وكان أمامه ما يقرب من خمس دقائق ، فقد كان البيت كائنا فى طرف الضاحية .. لا يفصله عن المزارع الممتدة شىء .

لقد كان البيت مثاليا من الناحية الصحية والناحية المالية فهو خلوى إلى أبعد حدود الخلاء . رخيص إلى أبعد حدود الرخص .. ولكنه مع ذلك لا يعدم السيئات .. فهذا الإفراط فى الخلاء يسبب لبيومى أفندى كثيرا من المخاوف والمتاعب .. وهو لا يجسر إلا فى القليل النادر ، وتحت الظروف الطارئة أن يعود

إليه فى ساعة متأخرة من الليل . لأنه يخشى عواء الذئاب والظلمة والوحشة وفرط السكون ويتوهم فى حلكة الليل أشباحا ولصوصا تجوس فى المزارع وفى الطرق المعتمة .. ولا يجسر أيضا مهما اشتد الحر فى ليالى الصيف أن ينام والنوافذ مفتوحة .. فهو يخاف أن يهبط إليه اللصوص .

وأخذ بيومى يقترب من الدار وقد شملته ظلمة حالكة وهبت عليه من المزارع ريح رطبة باردة أصابته بقشعريرة فى جسده ، وأسرع الخطى تجاه البيت ، وقد أصابه وهم بأن هناك من يطارده .

وأخيرا وصل إلى البيت ، ودلف من الباب الخارجى ووقف برهة فى « بير السلم »وقد تكاثفت فيه الظلمة حتى لم يعد يرى أبعد من أنفه .

وبدأ يتحسس طريقه صاعدا الدرج بالتوجيه وبحكم العادة ومر بالطابق الأسفل فلم يلمح من بابه بصيص ضوء .

ويحه .. إن البيت قد خلا الليلة إلا منه .. فقد تذكر فى تلك اللحظة أن جاره الذى يقطن فى الطابق الأسفل مسافر هو الآخر فى مأمورية منذ بضعة أيام .. وسرى الخوف فى نفسه .. فقد كانت المرة الأولى التى يبيت فيها وحيدا فى البيت .. لقد كان عطوة — لعنة الله عليه — يؤنس وحشته ، ويبعث فى نفسه كثيرا من الطمأنينة .

وانتهى من صعود الدرج .. وأخرج المفتاح من جيبه ووقف أمام باب شقته ليتحسس فتحة المفتاح ، ودفعه فيها وأداره دورتين .. ثم دلف إلى الداخل .. ومد يده فى الظلمة حتى استقرت على مفتاح الكهرباء ثم ضغط عليه .

ولكن الكهرباء لم تضىء .. لقد كان بها خلل .

ياللنحس ! وياالليلة السوداء ! حتى النور !.

ودفع بيومى بيده فى جيبه فأخرج علبة الثقاب .. إنه يذكر أن فى أحد أدراج البوفيه شمعة صغيرة يستطيع أن يشعلها ويستعين بها على تبديد تلك الظلمة المروعة ، وأشعل الثقاب فأحدث حوله دائرة من الضوء كشفت عن الأشياء

المحيطة .. وكان أول ما وقع عليه بصر بيومى أفندى هو سكين كبيرة .. مشحوذة الحد .. مدببة الطرف .. وتذكر الرجل القتيل .. وتذكر عنقه المعلق على بضعة عروق .. ودماءه المتجمدة حوله .. وندت عنه صرخة مكتومة .. وأحس كأنه يوشك أن يخر مغشيا عليه .

ياللجبان الرعديد !! ماذا أصابه ! هذه سكين المطبخ قد نسيها عطوة على المنضدة ! ماذا روعه منها !؟

الكلب عطوة !! والله ليرينه عاقبة إهماله عندما يعود ، لقد أمره بألا يترك الملاعق والسكاكين مبعثرة على المنضدة بل يضعها فى دولاب « المطبقية » ومع ذلك لا فائدة من نصحه فهو لا يلتفت إلا « للمسخرة » .

وسار بيومى متمهلا على ضوء الثقاب ، ولكنه توقف فى مكانه مرة أخرى .. لقد وجد الدولاب القديم الموضوع فى ركن الصالة مفتوحا .. وبدا له كأن هناك شبحا يكمن داخل الدولاب .

وأحس بخوف شديد .. ما الذى فتح الدولاب ؟ من يكون هذا الذى يتحفز داخله ؟! لص ولا شك !

ولكنه تذكر أن الدولاب دائما يفتح من تلقاء نفسه لأنه ليس به قفل ، ولأن ضلفته يميل ثقلها إلى الخارج فهى لا تستقر إلا مفتوحة .. أما الشبح الأسود فليس سوى صرة الملابس القديمة البالية يحفظها عطوة لكى يمزقها ويصنع منها سجادة .

وتمالك الرجل نفسه حتى وصل إلى البوفيه .. وفتح الدرج وهو يرتجف وقد تلاحقت أنفاسه حتى لم يعد يسمع فى السكون الشامل سواها وانطفأ الثقاب ، وسادت الظلمة برهة ولكن سرعان ما بددها ضوء الشمعة .

ووقف بيومى ممسكا بالشمعة ، وأحس بأمعائه تنقبض وتتلوى .. إنه الجوع !

لا .. لا .. ليس هذا وقت أكل .. إنه لا يجسر على الذهاب إلى المطبخ ..

خير له أن يسرع فينكمش فى فراشه وإلا مات رعبا .

ولمح الدولاب القديم على ضوء الشمعة .. فسرت فى جسده القشعريرة مرة أخرى ، وأسرع فدفع الضلفة بيده وأغلقها جيدا ، ثم سحب مقعدا فأسنده إلى جوارها حتى لا تفتح مرة أخرى فهو لا يطيق النظر إلى الشبح الأسود الذى تظهره صرة الملابس .

كل هذا من عطوة ؟! أية سجادة تلك التى يريد الغبى صنعها من الملابس القديمة ؟ والله ليقذفنها من النافذة بمجرد شروق الشمس .

واطمأن بيومى إلى غلق الدولاب المخيف ثم اتجه إلى غرفة نومه ممسكا بالشمعة فى يد وبالحقيبة فى اليد الأخرى .

ووضع الشمعة على منضدة صغيرة فى حجرة النوم ، ثم أسرع يخلع ملابسه بسرعة البرق ولم تمض بضع ثوان حتى كان قد أطفأ الشمعة وانطوى فى فراشه مخفيا رأسه تحت الوسادة وقد أخذت أسنانه تصطك وأطرافه ترتعش .

وبدأ يطمئن نفسه بعد أن استقر فى الفراش قائلا لنفسه إنه ليس هناك ما يستدعى منه كل ذلك الخوف والرعب ، وأن الدار هى هى التى يبيت فيها كل ليلة .

وبدأت أعصابه تهدأ ، وجفونه تتثاقل عندما سمع فجأة صوتا جعله يرهف السمع ، وجعل أعصابه تتوتر من جديد .

أيمكن أن يكون هذا صحيحا ؟

لقد سمع صوت الدولاب يفتح ، ولم تكن الضلفة فى هذه المرة تفتح من تلقاء نفسها بل بفعل فاعل .. لأنه سمع صوت المقعد الذى يسندها وهو يدفع عنها .

إذن لم تكن هى الصرة بل كان شبحا رابضا .

لا .. لا .. إن ما سمعه ليس سوى من فعل الأوهام .

على أية حال خير له أن يغلق باب الحجرة عليه بالمفتاح زيادة فى الحرص والاطمئنان .

ونهض الرجل متسللا فى الظلمة المعتمة على أطراف أصابعه وأغلق الباب وأدار المفتاح فيه دورتين ، وهم بالعودة إلى الفراش .. عندما أحس بوقع خطوات تقترب من خارج الباب .. ثم أبصر بأكرة الباب تتحرك ببطء .

وأحس كأنه يوشك أن يتهاوى على الأرض .

هذه المرة لم يعد هناك شك لأن الأكرة تتحرك أمام ناظره والباب يهتز .

ووضح له الأمر فى سرعة البرق .. وأدرك لم كانت السكين موضوعة على المنضدة !

وتذكر القتيل .. والسكين التى حزت عنقه .

أيمكن أن تتكرر المأساة .. وتختتم حياته بمثل هذه الخاتمة التعسة ؟

لا .. لا .. يجب أن يتمالك وينفض عنه ذلك الرعب ، يجب أن ينجو بنفسه .

ونظر حوله كفأر حبس .. وتخيل اللص وهو يدفع الباب وقد أمسك السكين فى يده وهجم عليه فحز رقبته من الأذن إلى الأذن .

ولم يكن أمامه وسيلة للنجاة سوى النافذة .

وأحس بالباب يهتز .. وخشى لو طال الانتظار أن يتهاوى الباب أمام قوة الرجل ، فأسرع فى لمح البصر وفتح النافذة فهبت منها ريح صرصر عاتية .. ولكنه لم يشعر بأية برودة لأنه فقد فى ذلك الوقت كل إحساس إلا بالخوف المميت .

ووقف بيومى على حرف النافذة كريشة فى مهب الريح وتذكر أن هناك كورنيشا يحلى واجهة الدار ويمر من أعلا النوافذ وأسفلها وتبين أن هذا الكورنيش يمكن أن يهيىء له وسيلة للنجاة لو استطاع أن يسير على الحافة السفلى ممسكا بيده الحافة العليا .

ولم يستغرق منه التفكير فى ذلك سوى ثوان معدودات وبدأ ينفذ مشروع النجاة .. وأخذ يتحرك بخطوات جانبية بطيئة على حافة الكورنيش السفلى ..

وقد تعلق بيديه فى الكورنيش العلوى .. وأخذت الريح الباردة تضرب ظهره وبدا كأنما هو عنكبوت مغلق فى حائط الدار .

على أية حال .. إن هذا خير من أن ينتظر حتى يحز الرجل رقبته بالسكين .

وفجأة أحس أن الكورنيش قد انتهى ، وأنه لم يعد هناك ما يستطيع أن يستند إليه فيما لو حاول السير ، وأيقن أنه قد وصل إلى النافذة المجاورة لنافذته ، وأن كل ما ساره لا يعدو أن يكون بضع خطوات .. ثم تذكر أن النافذة لا بد أن تكون النافذة المطلة على بئر السلم .. ووجد أن خير طريقة للنجاة هى أن يهبط من النافذة إلى الداخل ، ثم يتخذ طريقه على السلم إلى خارج الدار .

وهبط بيومى فى سكون من النافذة فاستقر على بسطة السلم .. وهم بالاندفاع إلى أسفل عندما وجد باب شقته يفتح من الداخل .. وأبصر بضوء خافت كضوء الثقاب يشع من خلال الباب ، ثم وقع بصره على السكين .

وتسمر بيومى فى مكانه ، والتصق بالحائط .

ماذا يفعل ؟ أيعود إلى النافذة ؟ أم يندفع إلى أسفل ؟

إن الرجل سيتبعه فى كلتا الحالتين وسيحاول اللحاق به ، وهو لا شك أخف منه حركة ، ويستطيع أن يمسك به .

ومضت فترة وهو لا يقوى على الحراك ، وأحس أن أعصابه توشك أن تخونه .. وأنه على وشك أن يخر مغشيا عليه .

وبدا اللص من الباب وقد شهر بيده سكين المطبخ .. وباليد الأخرى أمسك عود ثقاب .

ونظر إليه بيومى أفندى وصرخ بكل قواه :

ـــ عطوة !!

أجل لقد كان عطوة بعينه ودمه ولحمه .. لقد طردته أم نفيسة ، فاضطر إلى أن يقضى إجازته فى الدار ، واستيقظ على صوت حركة فى الشقة وأحس بإنسان فى حجرة بيومى أفندى يحاول أن يغلق الباب من الداخل ، فتأكد أنه لص وأنه

يوشك أن يفر من النافذة ، فهبط ليتلقاه فى الحديقة .

ونظر عطوة فى ذهول إلى بيومى أفندى وهو يقف على البسطة مرتديا الجلباب وصاح به :

ـ بيومى أفندى ؟!

وأجابه بيومى أفندى فى ذلة ومسكنة :

ـ الحقنى يا عطوه .. دمى نشف .

ولأول مرة .. سمح بيومى أفندى لنفسه أن يخر مغشيا عليه .

عبد الجادر عبد الدليل

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .
وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفاتها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئا ، وألا أمعن فى جمودى وحيائى وأدبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

هو صديق صبا وزميل طفولة .. وقد كان ــ أعنى هذا الحمار من الشرق ــ حمارا منذ عرفته ... ولكنه كان وقتذاك حمارا من « قبلى » .. أى حمار محلى ، ولم يكن قد اتخذ بعد هذه الصفة العامة العالمية .

اسمه محمد .. بكسر الحاء والميم .. ولقبه عبد الجادر عبد الدليل .. أى عبد القادر عبد الجليل .. (بقلب القاف الأولى جيما والجيم الثانية دالا .. للثقل والتعذر .. أعنى ثقلها على لسانه وتعذر نطقها عليه) وشهرته ، محمد الفوتبول ، وبلده فاو الريسية مركز نجع حمادى .

أما عن شهرته بالفوتبول .. فمرجعها إلى أنه كان التلميذ الوحيد فى سنة رابعة ثان بمدرسة محمد على الابتدائية الذى كان يملك جزمة فوتبول .

ولم يكن محمد الفوتبول .. بلاعب ماهر للفوتبول .. حتى تملأ شهرته بهذا الاسم الآفاق .. بل إنه كان يرتدى هذا الحذاء فى كل وقت .. عدا أوقات لعب الفوتبول .

أما عن ارتدائه إياه فى كل وقت .. فقد كان أمرا طبيعيا ، لأنه لم يكن يملك غيره .

ولست أشك فى أن ستة الأزواج من « الاستدز » .. التى يرتفع عليها نعل هذا الحذاء كانت سبب ابتلاء صاحبنا به فقد كانت هى التى أغرت أباه الشيخ عبد القادر بشرائه له .

ولكن العجيب .. هو خلعه ساعة اللعب .. أى فى عز المعمعة .

ذلك كان أمرا عجيبا ، ولكن — كما يقول المثل — إذا عرف السبب بطل العجب ، ولم يكن للأمر العجب سبب واحد بل كان هناك مائة سبب .

السبب الأول : هو أن أباه قد أوصاه بالحذاء خيرا .

والسبب الثانى : هو أن محمدا نفسه .. كان يخشى على نفسه من الكعبلة والزحلقة ، إذا هو غامر باللعب به .

والسبب الثالث : هو أنه كان يعتقد — وهو على حق — أن قدمه كانت أشد صلابة من الحذاء .

والسبب الرابع : وهو أهمها جميعا .. هو أن الحذاء لا يكون موجودا معه خلال اللعب .. بل يكون مؤجرا لأحد اللاعبين .

وقد يبدو إيجار صاحبنا لحذائه أمرا غريبا ، وقد يظنه القراء من باب المبالغة والتشنيع ، ولكنى أؤكد لهم أنه كان وقتذاك أمرا طبيعيا جدا .

كان حذاء محمد من نوع الكنج الأبيض ، حذاء فاخرا معتبرا ، وكان يجعل صاحبه محسودا منا .. فقد كان الحذاء الفوتبول أقصى أمانينا وقتذاك .. فقد كنا من غواة اللعبة ولكننا لم نكن نجيدها إلى الحد الذى يحشرنا فى زمرة تيم المدرسة المتمتع بلبس أحذية الكرة ، والذى كنا ننظر إليهم نظرة المحسودين أنصاف الآلهة .

وكان محمد هو الوحيد من بين العبيد الذى يمتلك الحذاء السحرى .. حقيقة أنه لم يكن يمتلك غيره ، ولكن ذلك لم يكن يحط من قيمته لدينا .. بل كنا نتمنى كلنا أن نكون مثله ، وأن يستبدل آباؤنا تلك الأحذية الرقيقة بأحذية فوتبول ضخمة ، وما حاجتنا إلى الأحذية الرقيقة ، وقد كانت لا تستغل إلا فى لعب

الكرة وشوط الزلط والطوب .

ولقد بدأت عملية الإيجار بأن سأل أحدنا محمداالمحسود أن يعيره الحذاء ذات مرة ، فرفض وأنبأه بأن أباه حذره من أن يخدشه أو يتلفه ، وهكذا قطع علينا محمد كل أمل فى استعارة الحذاء ، وبقينا ننظر إليه فى حسرة ولهفة حتى احتاج محمد ذات مرة إلى اقتراض قرش من أحدنا ، وهنا بدت الفرصة سانحة ، وصمم صاحبنا على استغلالها فقال :

— اسمع يا محمد .. أنا مستعد أديك القرش ، ومش حاخده منك .. بس بشرط .

— إيه ؟

— تسلفنى جزمتك العب بيها شوية .

— لا يا عم حد الله بينى وبينك .

— يا اخى متبقاش حمار .

— جلت لج .. يفتح الله .

— يعنى مش احسن ما انت قالعها وراكنها وبتلعب حافى .. أنا مستعد كمان اديك جزمتى تلعب بيها .. مبسوط يا عم ؟

وأخذ محمد يشاور عقله ، وبعد برهة قبل العرض .

وهكذا بدأ الإيجار ، وراج سوق الجزمة رواجا شديدا إلى الحد الذى أصبحنا معه مضطرين إلى حجزها قبل موعد الإيجار ببضعة أيام .. من فرط إقبال اللاعبين عليها .

وكانت نصيحة محمد التقليدية التى يسوقها إلينا قبل تسليم الحذاء :

— حاسب عليها ... ما تشوطش جوى .. اوعى تجرى بيها .

وهكذا كان محمد يفترض دائما فى مستأجر الحذاء .. استئجاره لمجرد التنزه وهذا هو ما كان يهون عليه الأمر .

ولقد استنفد محمد وقتذاك بحذائه معظم مصروفاتنا حتى اضطررنا فى نهاية

الأمر إلى التشارك فى استئجاره .. فكنا نستأجره إثنين اثنين .. كل واحد يستعمل فردة .. على أن نتبادلها فى الهاف تيم .. فيتاح لكل منا فرصة لبس الفردة اليمين — وهى الأهم — فى نصف الوقت .

وهكذا كان محمد عبد الجادر عبد الدليل تلميذا .. وصاحب ملك .. يؤجره وقتما شاء ، وحيثما شاء .

تلك كانت أولى مزايا محمد ، وهى الحذاء الفوتبول .. أما الميزة الثانية ، فهى أنه كان .. حمارا ، إن صح أن هذه يمكن أن تسمى ميزة .

كان حمارا غشيما .. طيبا .. خفيف الدم ، ولقد ظل هكذا فى كل سنى دراسته ، وفى كل أطوار حياته ، وظللنا ننتقل سويا من سنة إلى سنة ومن طور إلى آخر وهو نفس الحمار .

ولقد عدا بنا الزمن ، حتى انتهت دراستنا .. فضربت بيننا الفرقة ، وبقيت فى عمل بالقاهرة ، وقذف به حظه السعيد إلى بعثة دراسية طويلة فى إنجلترا .

ووقفت أودعه وأوصيه بنفسه خيرا من بنات التاميز فإذا هو يضحك ضحكته العالية المجلجلة ويقول :

— ما تخافش (بكسر الفاء) .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى !.

وافترقنا يومذاك ، وطالت به الغربة وامتدت الفرقة . حتى التقينا أخيرا بعد فراق خمس سنوات .

ووقفت أفحصه من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فوجدته هو هو .. لم يعد عليه الزمن ، ولا بدل به شيئا .

محمد ولد الشيخ عبد الجادر عبد الدليل ، من فاو الريسية مركز نجع حمادى .. نفس الحمار اللطيف خفيف الدم .

وإن كان الجو والمكان الذى التقينا به يجزم لى بأنه لم يعد حمارا غشيما .

كان لقاؤنا فى مكان ما .. فى ليلة حمراء ، ولم يخطر لى ببال أن صاحبنا محمد يمكن أن يرتاد مثل هذا « المكان ما » فقد كان دائما مخلوقا خاما .. خجولا ،

هيابا .

قصدت « المكان ما » وصاحب لى ، وكانت قد مضت علينا مدة لم نرتده ولم نقض سهرتنا به وطرقنا الباب فمضت برهة قبل أن يفتح لنا ، وأخيرا فتح الخادم لنا وسألنا التفضل .

وترددت برهة إذ لم نجد فى الدار أثرا لصوت أو حركة .. بل بدت خالية تماما ، وسألت الخادمة فى دهشة :

— أين .. الجماعة ؟

— تفضلا .. إنهم بالداخل .. مشغولين مع أحد الأصدقاء .

ودخلنا إلى حجرة الجلوس ، ففوجئنا بمنظر أذهلنا إذ وجدنا صاحبنا محمد عبد الجادر .. الغشيم ، التقى المصلى ، قد تربع على الأرض ومن حوله التفت الشلة بأكملها وقد انهمكوا جميعا فى الضحك والمزاح .

ولم أكد أراه حتى صحت به :

— محمد .. يخرب بيتك .. إيه اللى جابك هنا ؟! دانا فاكرك لسه فى انجلترا !

ونهض محمد وأخذنى بالحضن وهو يقهقه قهقهته العالية .

وعدت أقول له :

— إيه اللى جابك هنا .. دانا ماعنديش أى فكرة انك فى مصر .

— لا زم مابتجراش الاجتماعيات فى الأهرام .. اللى فيها أخبار الناس الأكابر .

— وانت بقيت من الأكابر ؟

— أمال .

— جيت ميتا .

— أديلى شهر .

— شهر وانت فى مصر وأنا ماعرفش ، وبعد كده اقابلك فين .. فى آخر حتة يخطر على بالى انى أشوفك فيها .

— ليه بجا ؟

ــ انت مش فاكر لما كنا نتحايل عليك تيجى معانا هنا . فكنت تطاطى من الكسوف وتقول « أستغفر الله العظيم » .

ــ كان زمان ودبر .. حد واخد منها حادة .

ــ والله زمان يا محمد يا ولد عبد الجادر ، وبتيجى هنا دائما ؟

وأجابنى بكلمته الشهيرة :

ــ كتير .. (بفتح الكاف) .

ــ يعنى بقيت صاحب بيت .

ــ وابوها .

ــ يعنى مالناش هنا عيش معاك .

ــ ما خلاص بجى راحت عليكم .

ــ والله خسروك بنات التاميز .. بعدما كنت خام ، بس فالح تقوللى ، ماتخافش .. دانا محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى .. فاكر .

ــ فاكر .. فاكر جوى .. ما هى دى اللى جابت لى الكافية .

ــ إزاى ؟

وبدأ محمد ولد عبد الجادر من فاو جبلى يقص على « إزاى » ويروى مغامراته مع بنات التاميز ، قال :

ــ وصلت مانشيستر بعد رحلة طويلة بالبحر وبالقطار قضيت معظمها راقدا فى الفراش أشبه بالقتيل ، وحدث عن اللخمة واللبخة التى أصابتنى ولا حرج .. لقد ظللت ما يقرب من شهر وأنا أشبه بالفأر الحائر فى مصيدة أو باليهودى التائه الضال .. حتى استقر بى المقام أخيرا بين عائلة إنجليزية مكونة من أرملة وابنتها .

وكانت السيدة فى مقتبل العمر لا تكاد تتجاوز الأربعين على قسط كبير من ملاحة غير حائلة بل ظاهرة واضحة فى تقاطيع وجهها وفى استواء جسدها ، أما الابنة فكانت فتاة لا تتجاوز العشرين بها شبه كبير من أمها مع فارق فى

النضارة والصبا .

وكانت العائلة خلوا من الرجال .. أى أننى كنت الرجل الوحيد المقيم بينهما ، وأقول لك الحق أننى كنت شديد التهيب مفرط الخجل فما تعودت — أنا الخام الغشيم الصعيدى المحافظ — أن أقيم وسط نساء غريبات ، ولذا فقد كنت أتسلل إلى البيت كالفأر .. لا يكاد واحد يشعر بوجودى .. أو مجيئى وترحالى ، وما أذكر مرة أنى ، حاولت أن أرفع بصرى إلى إحداهما ... بل كانت تكاد تسبقنى إليهما كلمة « يا ساتر » التى تعودنا فى مصر أن نسبق بها مقدمنا على النساء .

كنت شديد الانطواء .. فقد كنت أجد فى انطوائى خير مهرب لى مما يمكن أن أقع فيه من زلل مقصود أو غير مقصود . وكنت أشبه فى الدار بعابر سبيل لا آوى إليها إلا فى بهمة الليل .. حيث أدق الجرس فى هيبة وخشية فإذا ما فتحت لى إحداهما أطرقت برأسى وتمتمت بضع كلمات على سبيل الاعتذار .. ثم أتسلل إلى حجرتى بلا حس ولا حركة .

فإذا ما ضمتنى الغرفة أغلقت الباب شاعرا من وحدتى بشىء من الأمان ، وكانت الحجرة بسيطة لا تحتوى إلا على فراش ودولاب للملابس ومنضدة عليها مرآة ، ومقعدين قديمين ...

وكان أكثر ما أقاسيه فى حجرتى المنعزلة .. هو البرد والحنين إلى الوطن .. كان البرد قاسيا إلى حد لم تجد معه أغطية ولا بطاطين حتى اضطررت إلى رفع سجادة قديمة من الأرض ووضعها فوق الأغطية التى أتغطى بها فلما لم تجد نفعا لجأت إلى كل ما أملك من ملابس فنقلتها من الدولاب ورصصتها فوق الواحد بعد الآخر حتى انتهى بى الأمر إلى أنى لا أنام إلا وفوق كوم هرمى من الملابس يكاد يصل إلى عنان السقف .

ولست أشك أنى كنت مستمرا فى النوم على هذه الطريقة طوال مدة البعثة ، ويعلم الله ماذا كان يمكن أن يصبح عليه جسدى بعد مر السنين عليه وهو تحت هذه الأثقال ، ولكن أغلب ظنى أنه كان سيطرق ويرق ويصبح جسدا رفيعا

منبسطا .

أقول إنى كنت سأستمر على هذا النوم حتى حدث ما كشف أمرى فجأة .. فقد تأخرت فى النوم ذات ليلة عقب سهرة مع أحد الأصدقاء فى يوم عطلة ، وبينما أنا ملقى فى فراشى تحت كوم الملابس وأنا أفتح عينى فى كسل وتراخ إذ سمعت طرقا على الباب ، وقبل أن أتمكن من النهوض وإخفاء معالم المنظر العجيب فتح الباب ورأيت الابنة واقفة به وقد استقر بصرها على كوم الأغطية والسجادة والملابس طبقات فوق طبقات .. ثم دارت ببصرها فى أنحاء الحجرة محاولة البحث عنى إذ لا شك أنه لم يخطر لها ببال أنى أرقد تحت هذا الكوم المرتفع .

ولم أحرك أنا ساكنا فقد خجلت من أن تكشف وجودى على هذا الحال وتمنيت أن تغلق الباب وتنصرف ، ولكن الشقية لم تذهب بل خطت إلى الأمام خطوة جعلتها فى داخل الحجرة وأخذت تعيد البحث فى مزيد من التأنى والدقة ، وأخيرا صاحت منادية :

ـــ هاى .. مستر محمد .

وهنا لم يكن بدّ من الإجابة فصحت من أسفل الكوم :

ـــ هالو .. مس مارى .

وتهللت الفتاة ، وعادت تنادينى بأعلى صوت :

ـــ هالو .. أين أنت ؟

ـــ أنا هنا .. فوق الفراش ، وتحت الأغطية .

وانحنت الفتاة ناظرة إلىّ فى ذهول صائحة :

ـــ وماذا وضعك هنا ؟

ـــ أنا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنام .

ـــ ومن الذى وضع هذا فوقك ؟

ـــ أنا أيضا .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأقاوم البرد .

واندفعت الفتاة تقهقه .. ثم قالت أخيرا :

ـــ إذا كنت ستداوم على هذا .. فقد تموت يوما مختنقا ...

ـــ وإذا لم أداوم عليه .. فسأموت قطعا من البرد .

ـــ ولكن لماذا لا تستعمل المدفأة ؟

ـــ أية مدفأة ؟

ـــ هذه المدفأة الغازية الموجودة أسفل المنضدة .

ـــ عجبا !! أيوجد مدفأة أسفل المنضدة ؟

ـــ بالطبع .

ـــ لعنة الله عليّ .. إنى لم أكتشف وجودها ..

ولو اكتشفت وجودها لما عرفت كيف تستعمل .

ـــ ولماذا لم تسأل مستر محمد ؟

ـــ خشيت أن أزعجكم !

ـــ إن هذا لا يزعجنا .. إننا مفروض علينا أن نهيئ لك الراحة .

وكانت هذه المناقشة تدور بيننا بسرعة وأنا ما زلت فى مضجعى تحت هرم الملابس وأخيرا قالت الفتاة :

ـــ أتستطيع النهوض ؟

ـــ بالطبع ، ولكن أرجوك أن تبتعدى حتى لا تقع عليك الملابس .

وكان الأمر يحتاج إلى بعض الجهد فانكمشت ضاما ركبتى إلى صدرى ثم فردتهما بشدة فارتفع الكوم ثم مال على جانبه منهارا إلى الأرض .

وصاحت الفتاة معجبة :

ـــ برافو !

وأردفت وهى تتجه إلى الباب :

ـــ سأذهب لكى أحضر لك فنجانا من الشاى وأعلمك استعمال المدفأة .

وبعد لحظات عادت الفتاة إلىّ بالشاى وجلست تعلمنى استعمال المدفأة التى لم يخطر لى على بال أنها موجودة .

وهكذا بدأ أول حديث لى مع الفتاة .. لقد اندفعت هى تعرض خدماتها ، ولكنى كنت ما زلت مغرقا فى أدبى وتحفظى .. أحدثها دون أن أجسر على النظر إليها بل أخفض بصرى ، كما تعودت أن أفعل دائما عندما أكون فى حضرة حريم غريبات ...

وكنت أفضل أن أستمر على شهامتى الصعيدية وألا أستغل رقة الفتاة ولطفها ، وأن أريها أنى رجل رزين وقور .

لقد زادت ساعات وجودى فى الدار بناء على دعوتهما من آن لآخر للشاى أو للطعام ، ولكن كنت طوال تلك الساعات محتشما .

وكنت إذا ما جمعنى وإياهما مجلس أسبلت عينى وطأطأت رأسى فى حياء وخشية وأدب .

واستمر هذا شأنى ، حتى فوجئت بالفتاة تسألنى :

ـــ ماذا بك يا مستر محمد ؟

ودهشت وهززت رأسى متسائلا :

ـــ من حيث ؟

ـــ عينيك .. هل بهما شىء ؟

ـــ لا .. أبدا .

ـــ إذا لم لا تنظر إلى بهما ؟ هل بى شىء لا يعجبك ؟

ـــ حاشا لله .. وأستغفر الله ، إن بك كل شىء حسن .

ـــ إذا فما السبب فى أنك لا تنظر إلىّ ؟

ـــ أدب .. لا أقل ولا أكثر .

— أدب ؟!

واندفعت مقهقهة ثم أردفت :

— إنها قلة أدب .. من قال لك إن من الأدب ألا تنظر إلى فتاة أمامك ؟ ألست جميلة ؟ ألا أستحق النظر ؟

— بل تستحقين كل النظر .. إنى جد آسف .. لقد تعودنا أن نفعل هذا مع النساء فى بلادنا .. اعذرينى ، فأنا مؤدب من الشرق .

— إنك حمار من الشرق ، أرجوك أن تكف عن هذا الأدب .

ومن يومها بدأت أكف عن أدب النظر .. بالنسبة إلى الفتاة .

وبدأت الفتاة تغدق على خدماتها وعطفها ، وتنظف الحجرة وترتبها وتتسكع بها ما شاء لها التسكع .

وأحسست من أفعالها هذه ، ومن تصرفها وتسكعها أنى يجب أن أفعل شيئا ، وألا أمعن فى جمودى وحيائى وأدبى فأكون عند قولها « حمار من الشرق » .

أجل ! كان يجب أن أفعل « شيئا » ، ولكن ما هو هذا الشىء الذى يستطيع مثلى أن يفعله ؟

ماذا أقول لها ؟ إن المسألة تحتاج أولا إلى أن أكتب ما سوف أقول باللغة العربية ، ثم أترجمه إلى الإنجليزية .. ثم أحفظه عن ظهر قلب ، وألقيه عليها كالمحفوظات .

وبعد كل هذا التعب ، أكون مضحكا ، وحمارا أيضا ؟

إذن فيجب أن أفعل شيئا .

أقبلها مثلا ؟

لم لا ؟ لأجرب معها .. وأرى ما سوف يكون .

وفعلا ، ظللت أترقب الفرصة حتى سنحت ، وفى خلوة لنا فى حجرتى ، وجدتها تنحنى لترتب الفراش .. فمددت بوزى ، ولهفت قبلة ، ووقفت أنتظر النتيجة .

ووجدتها تهز رأسها فى أسف ، وتقول ببساطة :

— إن الرجل الإنجليزى لا يفعل هذا .

وأحسست من قولها بلطمة شديدة .. وإهانة بالغة ، وتأنيبا مرا .

ولم يكن أمامى سوى الانسحاب ، والندم والتباعد ، فانسحبت وندمت وتباعدت .

ومرت الأيام والليالى ، وأنا منطو على نفسى عائد إلى سابق حياتى .

حتى كان ذات مساء وأنا عائد إلى حجرتى ، عابرا الممر ذى الضوء الخافت مارا بحجرتها فى صمت وسكون أن أحسست بيدها تمتد من باب حجرتها ثم تمسك بى من قفاى وتجرنى إلى داخل حجرتها .

ووقفت أمامها وجها لوجه ، وهى بقميص النوم .. ورأيتها تحملق فى وجهى غضبى ثائرة ، وتهمس ناهرة :

— ما بالك أيها الحمار العنيد ؟

وعادت تسأل بانفعال :

— ماذا فعلت لك حتى تمعن فى إعراضك الغبى ؟

— ألم تقولى لى عندما قبلتك .. إن الرجل الإنجليزى لا يفعل هذا ؟

— أجل ! إنه حقا لا يفعل هذا .. ولكنى لم أقل لك إنى أحب ما يفعل الرجل الإنجليزى .

وتصالحنا .. وفعلت بها ما لا يفعل الرجل الإنجليزى ، وما لا تكرهه هى .

ومرت الأيام ، والعلاقات تزداد وثوقا وتوطدا حتى أصبحت الفتاة تفرض لنفسها علىّ حقوقا ، وتغار علىّ من الهواء ، ولا تكاد تتركنى أخرج وحدى .

وفى كل هذه المعمعة ، كانت أمها تقف على الحياد .

وبدأت أحس من الأمر بخطورة ، فقد باتت الفتاة تعتبرنى خطيبها .

وتصورت ما يمكن أن يحدث لفاو جبلى .. وللشيخ عبد الجادر عبد الدليل أبى ؛ وللست عيوشة أمى ، لو حدث — لا قدر الله — أن تحرج الأمر ولم أستط

منه فكاكا ، وعدت إليهم وفى يدى « سنيورة »من بلاد برّه .

ولم يكن هناك علاج للمسألة أحسم من أن أسافر إلى مصر فى إحدى العطلات الصيفية ثم أعود لابسا خاتم خطبة زاعما أنى قد خطبت حتى أقطع عليها كل تفكير فى خطبة أو زواج .

وفعلا ذهبت وعدت وفى أصبعى خاتم الأمان .

ولم يخطر ببالى أن الخاتم سيكون له هذا الوقع المروع فقد ثارت الفتاة ، وتشنجت ، وبكت .. وظلت بضعة ليال ساهرة لا تهدأ ولا تنام .

كل هذا وأمها على الحياد لم تنبس بكلمة تأنيب ولا لوم .

حتى دخلت علىّ ذات ليلة ، وأنا أوشك أن آوى إلى الفراش .

وبدأت أجمع فى ذهنى مستندات الدفاع .. ردا على ما توشك أن تنزله بى من لوم وتأنيب ، وما توشك أن تصفنى به من سفالة ، ولؤم ، وانحطاط .. لتغريرى بابنتها وخداعى لها .

ووقفت أمام الفراش أرتجف خجلا واضطرابا .

وأخذت الأم تقترب منى فى صمت ، وكلما زاد اقترابها وصمتها زادت خشيتى .

حتى وقفت بجوارى أمام الفراش ورفعت يديها .. لا لتضربنى ، بل لتتمطى ، وتستلقى على الفراش ، وتهمس إلىّ فى استدعاء واسترخاء :

ـــ أطفئ النور .. وتعال ، هيا ، أيها الحمار من الشرق .

ومنذ تلك الليلة .. أصبحت الأم تشاركنى الفراش .. وهى قريرة راضية ، مقتنعة بأن ليس فى عملها أية خيانة لابنتها ، بعد أن أصبحت خاطبا وفقدت كل أمل فىّ .

ولقد عرفت فى النهاية أنى كنت حقا حمارا من الشرق ، لأنه كان علىّ أن أبدأ بالأم ، المجربة ، من أول الأمر .

عبد ربّه الصُرمَاتى

يا عبد ربه يا صرماتى .. يا من لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك .. يا من تغرق فى شبر ماء .. قاتلك الله من حمار أبله .. فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟. إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان !.

لم يكن عبد ربه مجرد صرماتى ؟! بل كان موسيقيا فنانا .. وكانت له فى بلدته شهرة واسعة .. فما خلا منه مجمع أنس أو حفل طرب .. وما مرت به ليلة إلا وقد تكاثر حوله القوم فى مقهى البلدة يرجونه أن ينشدهم بعض المواويل على ربابته .

ولم يكن الرجل فى حاجة إلى رجاء .. فقد كان لا يستطيع أن يجلس صامتا .. أو يسير وحيدا لا تصاحبه الربابة .

وكان بين ربابته وامرأته عداوة شديدة وخصام مستحكم .. فقد كانت أم أحمد (المرأة) تكره أم على (الربابة) كرها شديدا .. ولا ترى فيها إلا مضيعة للوقت ، وما زال القوم يذكرون تلك الزوبعة العاصفة التى لاقته بها المرأة يوم عاد إلى الدار أول مرة يحمل الربابة وينبئها أنه ابتاعها لقطة .. من أحد الحوانيت فى البندر .. عند ذهابه لزيارة خالته نفيسة .

كانت أم أحمد امرأة جد .. ترى أن « صرماتى » يعنى « صرماتى لا مغناوى ولا مزيكاتى .. وكانت ترى فى تعلق زوجها بالغناء والطرب والموسيقى .. سببا فى انشغاله عن عمله الأصلى .. وفى صرفه عما يجب أن

ينهمك فيه من ترقيع «البراطيش» وإصلاح «الصرم».. وسببا فى «وكسته» أو خيبته.. وبقائه طول عمره «عتقى» تعس فى هذه البلدة الخربة الخاوية.

وكانت أم أحمد — وهى قاهرية من بولاق — تتوق إلى العودة إلى مقرها الأصلى ولا تفتأ تنغص على زوجها عيشه .. ملحة عليه فى الرحيل إلى القاهرة ، وهو يستمهلها حتى يفتح الله عليه وحتى يتجمع لديهما من المال ما يعينهما على السفر وعلى الاستقرار فى القاهرة .

وهكذا وجدت المرأة أن أملها فى الرحيل عن هذه البلدة الكريهة معلق بأن يفتح الله على زوجها فيجمع لها قدرا من المال .

ولكن كيف يفتح الله عليه .. ومن أين يأتيه قدر من المال .. وهو يضيع نصف وقته فى الغناء والسمر والطرب ؟ وزاد الطين بلة .. تلك الربابة التى اشتراها والتى صرف فيها مبلغا لا شك فى أنه كان يمكن أن يجعل منه نواة لتغيير مجرى حياتها والرحيل عن هذه البلدة والاستقرار فى مصر .

ومن هنا كان كره المرأة للربابة والغناء . وأخذت المشاحنات تتزايد يوما بعد يوم حتى بدأ صبر المرأة ينفد وانتهى بها الأمر إلى أن تخرج من دارها ذات ليلة وقد تأخر عبد ربه عن موعد عودته متجهة إلى المقهى ثائرة هائجة .. وتهجم على زوجها فتخرجه من بين الجمع الذى أحاط به .. وتنشب أظافرها فى عنقه وتمسك بالربابة فتحطمها .. ثم تسوقه أمامها عائدة إلى الدار .

ومنذ ذلك الوقت انطوى عبد ربه على نفسه لا يكاد يغادر مقعده .. وبدت عليه علائم الهم والبؤس .. كأنما حرم من عزيز لديه .. يتناول « الصرم » من الزبائن كسير القلب حزين النفس .. والزبائن يقبلون عليه .. واجمين مطرقين .. كأنهم فى مأتم ..

وسرى الحزن من عبد ربه إلى أهل البلد جميعا .. وأضحت مجامعهم صامتة ، بعد أن خلت من عبد ربه وربابته .

* * *

ومضت بضعة أسابيع والبلدة صامتة واجمة كأنما قد نزلت بها نازلة وأصابتها كارثة .. حتى كان ذات يوم حدثت معجزة اهتزت لها البلدة .

لقد هبط عليها محسن كريم .. أغدق عليها حسناته فأنقذها مما بها .. وترك أهلها حيارى مشدوهين ، يتساءلون من يكون هذا المحسن المجهول .. فلا يجدون جوابا .

استيقظ أهل البلدة ذات صباح فإذا بالبريد يحمل إليهم سيلا من الحسنات كان أولها بضعة عشر جنيها لإصلاح الجامع .. وبضعة أخرى لشراء أقمشة للأطفال .. وهكذا لم يترك المحسن ناحية إلا أغدق عليها من أفضاله .. حتى المقهى .. لم يحرم من مبلغ وفير لإصلاح حاله ولشراء بعض الكراسى .. والدكك .

وكان آخر هذه الأفضال المنهالة على أهل البلدة من المحسن المجهول أو أكثرها غرابة .. طردا كبيرا مرسلا باسم « الصرماتى » .

وتكأكأ القوم حول الطرد ليعلموا ما يحويه .. ووقفت أم أحمد لاهثة الأنفاس .. مشدوهة .. حيرى .. تحملق فى الصندوق وقد أخذ زوجها فى فتحه لرؤية ما جاء به .

ونزع عبد ربه الصندوق برفق وأخذ يزيل طبقة القش التى علت سطحه ثم مد يده وأخرج ما به .

وندت عن القوم صيحة دهش .. وفغرت أم أحمد فاها وهى تحملق فى محتويات الطرد .. فقد كان لا يزيد عن « ربابه » .

ربابة ؟! هذه أمنية للبلدة كلها قد تحققت ولا شك .

وأمسك عبد ربه الربابة يفحصها فى إعجاب ولهفة .. وقد علت وجهه أبلغ علامات الرضا .

وهزت أم أحمد رأسها فى خيبة شديدة .. وأصابتها الحيرة فلم تعرف كيف تتصرف إزاء هذا الخصم الجديد الذى أرسله لها المحسن الأحمق المجهول .

وأخذ القوم يتساءلون عمن يكون هذا المحسن العجيب الذى غمرهم بفيض من إحسانه وعطفه ..!! وفجأة صاح الشيخ على .. خادم الجامع وإمام البلدة :

ـــ لقد وجدته .

وبهت القوم وتساءلوا :

ـــ من ..!!؟ من هو ..؟

وعاد الشيخ على يصيح :

ـــ عبد ربه .. ولا أحد غيره .. إنه لا شك السبب فى هذه النعم التى أغدقت علينا .

وهز القوم رءوسهم فى دهش وحملق عبد ربه بعينيه وأشار إلى صدره متسائلا فى عجب :

ـــ أنا ؟!!

ـــ نعم أنت .. فلا شك أن أحد الأثرياء من أصحاب الأراضى المجاورة قد سمع نبأ ربابتك وكيف حل بنا الحزن بعد أن حطمتها امرأتك .. وربما سمعك تغنى ذات مرة فأطربته .. وساءه أن يخفت صوتك وتصمت ربابتك ورغب فى أن يعوضنا عما أصابنا من غم .. فوهبنا ما وهب وأغدق علينا من نعمه .. وليس أدل على صحة قولى من أنه خصك أنت بالذات بهذه الربابة .

ولم يكد الشيخ على ينتهى من قوله حتى أمن القوم عليه وأقبلوا على عبد ربه يشدون على يديه ويوسعونه عناقا وتقبيلا .. وأبدى الشيخ على اقتراحا ، أنه يجب عليهم اعترافا بفضل عبد ربه أن يجعلوا له أجرا شهريا نظير غنائه وعزفه على الربابة .

ووافق القوم بالإجماع .. قائلين إن عبد ربه يستحق كل خير .. وإن البلد قد خيم عليه الشقاء والتعاسة منذ أن خفت صوته وصمتت ربابته .

وانفرجت أسارير أم أحمد .. وأحست لأول مرة فى حياتها .. باحترام لزوجها ولربابته .. فقد أصبح الغناء والعزف عملا رسميا .. وأضحت الربابة

مورد رزق بعد أن كانت مضيعة للوقت .. ومدت يدها فتناولت الربابة برفق قائلة له :

ـــ حاسب عليها لتتكسر .

وهكذا عاود عبد ربه غناءه وعزفه على الربابة .. وعادت إليه بشاشته .. وانقشعت عن البلدة سحب الغم التى خيمت عليها ، وعاد القوم إلى سابق فرحهم ومرحهم .. وفكاهتهم ومجونهم .

ومرت الأيام .. وسر المحسن المجهول ما زال فى طى الخفاء لم يستطع مخلوق أن يتوصل إلى كشفه .

وفى ذات يوم ذهب الشيخ على إلى دكان عبد ربه الصرماتى .. وتربع على مقعد أمامه وناوله حذاءه ليجرى له فيه بعض الترقيع والترميم ، وجرى بينهما الحديث . فسأل الشيخ على صاحبه عن امرأته وكيف أصبحت . وأجاب عبد ربه بلهجة راضية :

ـــ الحمد لله ..

ـــ أظنها كفت عن تنغيص عيشك .. ومنعك عن الغناء والعزف ؟

ـــ أجل لقد تبدل حالها ورقت مشاعرها وأصبحت هى نفسها تطلب منى الغناء والعزف .

ـــ هذا شىء واضح .. حتى ليخيل لى أنها قد تغيرت تماما .. لقد أصبحت امرأة كاملة .. لولا ..

ثم هز الشيخ على رأسه فى أسف ، فسأله عبد ربه فى دهش :

ـــ لولا ماذا ؟..

ولم يجب الشيخ على ، بل استمر يهز رأسه ، فعاد عبد ربه يستحثه :

ـــ تكلم يا شيخ على .. لولا ماذا ؟

ـــ لولا أمر يبعث فى نفسى التساؤل والحيرة .. وهو نظراتها إلىّ .

ودهش عبد ربه ورفع حاجبيه متسائلا :

— ما لها نظراتها إليك ؟

— إنها تنظر إلىّ نظرات غريبة مريبة .. نظرات مليئة بالحذر والشك .. كأنها تكاد تجزم بأنى أبله أو مجنون ؟

واندفع عبد ربه فى قهقهة عالية .. وأخذ يهتز من فرط الضحك . وبدأ الشيخ يتملكه الغضب وصاح فى صاحبه :

— ما يضحكك من قولى ؟

وكف عبد ربه عن الضحك واستطاع أن يتمالك نفسه وقال فى شبه اعتذار :

— الواقع أنها معذورة يا شيخ على .

وازداد غضب الشيخ على وعاد يهدر صائحا :

— معذورة !!.. يا ابن الحرام .. يعنى أنا راجل مجنون ؟

— العفو يا شيخ على .. لا أقصد هذا .. لو عرفت السبب لأدركت أنها حقا معذورة .

وصمت عبد ربه برهة ، ثم أخذ يروى لصاحبه السبب قائلا :

— هذا بينى وبينك أرجو ألا تبوح به لإنسان ، مفهوم ؟

— مفهوم .

— أنت تعرف أننى فى كل عام أذهب إلى البندر لزيارة خالتى نفيسة .. والواقع أنى كنت أؤدى هذه الزيارات مكرها لأنى لا أكره شيئا كمغادرتى للبيت .. ولكنى كنت أرى فى الزيارة واجبا علىّ لا بد من تأديته .. فقد كانت خالتى هذه امرأة وحيدة ليس لها من الأقارب سواى . وكانت زيارتى تسبب لها سعادة كبيرة وتشعرها بأنها ما زالت لها صلة بهذا العالم وأن هناك من يسأل عنها .

وذهبت آخر مرة لزيارتها منذ بضعة أشهر — وأذكر أنه كان يوم جمعة — وقد استيقظت قبيل الفجر فتوضأت وصليت الصبح حاضرا .. ثم توكلت على الله وسرت إلى البندر .

وكنت طوال الطريق أفكر فى حلم رأيته .. وأنت تعرف أن أحلامى لا تخيب

أبدا .. ولذا كنت شديد الوجوم ، منقبض الصدر .

رأيت فى الحلم أنى سائر على شاطئ بحر فى ليلة معتمة ، وفيما أنا سائر خيل إلى أنى أسمع أصواتا جميلة وأنغاما حلوة كأنها آتية من وراء البحر ، وتوقفت أنصت مرهفا أذنى محاولا تجميع النغمات .. ولكن مصدرها كان بعيدا ، وكان معظمها يتبدد مع النسيم فلا يصل إلىّ منها إلا أجزاء متقطعة كأنها رائحة الشواء .. تحرك الشهية ولا تغنى من جوع .

واشتد بى الحنين إلى النغم وأنا واقف مرهف الأذنين حتى وجدتنى أجرى فى المياه متجها على غير إرادة إلى مصدر النغم .

وظللت أسبح وأسبح ، والنغم يزداد اقترابا ، وتزداد معالمه وضوحا .. ولم أشك وأنا أقترب منه أن مصدره ربابة تجرى عليها يد عازف ساحر .. وبعد طول جهد لاحت لى ربوة مشرقة سابحة فى ضوء القمر .. فأسرعت فى السباحة كى أبلغها ، موقنا أن النغم لا بد وأن يكون صادرا منها .. وأخيرا أو بعد أن كدت أبلغها سمعت صرخة مفاجئة وصوت استغاثة يشق الفضاء ، وتلفت إلى مصدر الصرخة فإذا بمركب مقلوب وغريق يحاول التشبث به .. وترددت برهة فقد كان جهدى بالغا نهايته ، وكان طول السير فى الماء قد استنفذ كل قواى .. وكان ما تبقى لى من قوى لا يكاد يوصلنى إلا إلى الربوة المشرقة .. حتى لقد ساورنى شك فى أنى مشرف على الهلاك إن لم أسرع إلى الربوة .

ولم يطل بى التردد حتى عزمت على الاتجاه إلى الغريق ، فإما أنأنقذه أو نهلك معا .. وأخذت أضرب الماء بيأس حتى كلت قواى وأنا أقترب منه .. ولدهشى الشديد تبينت أنه خالتى نفيسة .

وصحت بها مطمئنا أنى عبد ربه ، وسألتها أن تتمالك حتى أصل إليها .. وظللت أجاهد فى السير حتى بلغتها وأمسكت بيدها وحاولت العودة بها ولكنها أنبأتنى أنها ستبقى ، وأنه لا فائدة من عودتها معى لأنها ذاهبة ذاهبة .. ثم بدأت تغوص فى الماء .. وصحت بها أن تتمالك وأنى سأنقذها وأعود بها ، ولكنها مدت

يدها وخلعت منديلا على رأسها وأعطته لى قائلة :

ـــ خذ هذا المنديل فإنه سيساعدك فى بلوغ الربوة .

واختفت فى جوف الماء ، ولم أجد بدا من العودة وحيدا ، ولكنى كنت أشك كثيرا فى إمكان العودة فقد كانت قواى قد خارت تماما .. وأمسكت بطرف المنديل فإذا بالريح تنشره ، وإذا به يكبر ويتسع حتى أضحى كأنه قلع مركب ، وتشبثت به .. فأخذت الريح تدفعنى وتدفعه .. وفى غمضة عين بلغت الربوة المنشودة .. وجلست أنعم بالنغم العجيب .

كان حلما عجيبا .. كان لا شك يعنى شيئا .. وكنت أخشى كثيرا من هذا الشىء الذى يعنيه .. ألا وهو ذهاب خالتى وفشلى فى إنقاذها من الغرق .

وكان الوهم يحملنى هما ثقيلا .. فقد خيل إلىّ أنى لن أصل إلى الخالة إلا وقد ذهبت إلى جوار ربها .

ولكنى استعنت بالله على طرد هذا الوهم ، ونفضت عن نفسى آثار ذلك الهم ، وقلت : إن كل ما أظنه ليس سوى أضغاث أحلام .. واتجهت قبل أن أذهب إلى المحطة إلى دكان سيد العطار لأبتاع لخالتى كيس الدقة المصنوعة من السمسم الذى تعودت أن أحمله لها فى كل زيارة .

وتذكرت بعد أن ابتعت الدقة أنها قد أوصتنى بشراء رطل من الحناء وبعض اللبان الذكر .. ولم يكن معى من النقود إلا ما كنت أحاول ادخاره خفية من زوجتى لشراء ربابة جديدة .. ولكنى مع ذلك لم أتردد فى أن أبتاع للخالة العزيزة ما طلبت بالنقود المتوفرة قائلا لنفسى : إنى أستطيع أن أدخر مبلغا آخر وأن أؤجل شراء الربابة بعض الوقت .. ولم يكن فى إقدامى على هذا العمل أى إحساس بتضحية .. بل كان مجرد استبدال متعة بمتعة .. فأنا دائما أوازن فى حياتى بين المتع وأختار المتعة الأبقى والأفضل .. وفى هذه الحالة اخترت المتعة المستمدة من إسعاد شخص قد حرم إلا من السعادة التى أستطيع أن أهبه إياها .. وهى متعة لو تعلم تفوق كل متعة .

وهكذا سرت إلى المحطة حاملا فى يدى السبت الملىء بمطالب الخالة من دقة إلى حناء إلى لبان .. إلخ . أو على الأصح هديتى السنوية .

ولا أكذبك القول أنى كنت أحمل الهدايا .. وبنفسى كثير من الشك أنى لن أجد المهدى إليها ، ولذا لا تسل عن فرحتى عندما وصلت فوجدتها سليمة معافاة .

ولقيتنى بالترحاب .. وضمتنى إلى صدرها فى حنان ورفق ، وقالت :

ــ طول عمرك .. وأنت ولد طيب .. إن الله لن يخذلك قط .

كانت تعتبرنى ولدا حتى ذلك الوقت .

وجهزت لى الغداء .. وجلست تطعمنى .. كأننى كما تعتبرنى مجرد ولد .

وبعد الطعام .. ماتت .

أجل .. ماتت فجأة .. هكذا كما أروى .. بدون أى سابق إنذار .

ومع ذلك لا أظن الموت يحتاج إلى إنذار ، لقد كانت تجلس على شلتة ، وبيدها فنجان القهوة ، فوجدت رأسها يميل ، وجفنيها يتثاقلان ، ويدها تهبط بفنجان القهوة على حجرها .

وأصابنى من مرآها رجفة شديدة .. ولكنى وثبت تجاهها وحملت فنجان القهوة المسكوب على ساقيها ثم أرقدتها على الشلتة كى تستريح ، وقلت فى جزع :

ــ ما بك ؟!

فلم تجب ، وأخذ رأسها يتمايل متحركا يمنة ويسرة ، ثم فتحت عينيها بعد لحظة ، وتمتمت بصوت متقطع :

ــ ورقة اليانصيب .. إنها فى درج الدولاب تحت العلبة الصفيح .. لقد ابتعتها بكل ما كنت أملك .. لقد كان مبلغا ضئيلا لا يستحق أن أهبه لك .. ولكن فكرت أنى أستطيع أن أبتاع لك هذه الورقة .. وأن أهب لك معها بعض دعوات خالصة بالربح .. فإذا استجاب الله دعواتى .. وهيأ لها الربح .. فإنى قد

وهبتك بذلك مبلغا طيبا .. إنك ولد طيب .. والله لن يخذلك .

ولم تمض بضع دقائق حتى أسلمت الروح .. ولم تمض بضع ساعات أخرى حتى ووريت التراب وانتهى كل ما كان من أمرها إلا أمرا واحدا وهو ورقة يانصيب عثرت عليها تحت العلبة الصفيح مكتوبة باسمى .

أتعرف ورقة يانصيب المؤاساة .. إنها ورقة كاملة لا نصف ولا ربع ولا عشر .. إذا ربحت نمرتها فمعناها أنى ربحت بضع عشرات الآلاف من الجنيهات .

وأحسست بالدموع تنهمر من عينى .. لا لأنى أتوقع ربحا — فأنت تعرف أنى لا آمل كثيرا فى مثل هذه الأشياء — ولكن فرحى كان إحساسا منى بجميل تلك الراحلة التى ودت أن تعوضنى عن اهتمامى بها وزيارتى لها .. فابتاعت ورقة اليانصيب بكل ما تملك ، راجية أن يكون لى بعض الحظ ، فتربح النمرة .

ووضعت الورقة فى جيبى فى سكون ، ومضيت أتجول فى الطرقات حتى استقر بى الأمر على إحدى المقاهى.وبعد برهة مر بى صبى يحمل فى يده بضع أوراق يانصيب .. وكشوفا بها نتائج السحب .

وتملكنى شىء من الارتباك .. ثم ناديت الصبى بصوت خافت وأخرجت الورقة من جيبى وبدأت أفحص الكشوف .

وبالطبع لم تكن نمرتها تطابق البريمو .. فتجاوزت عنها .. وبدأت أهبط بعينى إلى بقية النمر الرابحة التى فى الكشف .

وفجأة رأيت الأرقام تتراقص أمام عينى .. ثم تتشابك وتنقلب رأسا على عقب .. فشددت من الشيشة التى أمامى نفسا طويلا استعنت به على تهدئة نفسى .. وعدت أحملق فى الكشف مرة أخرى .

لقد وجدتها .. هى بعينها .. نفس الأرقام بلا جدال ولا نقاش .

لقد ربحت الورقة .. ولكن النمرة .. ليست الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة .. ولكنها مع ذلك ربحت مبلغا محترما بالنسبة لأى إنسان محترم ..

أما بالنسبة لى .. فقد كان محترما جدا .

وبدا لى أن أقوم فأرقص عشرة بلدى فى وسط المقهى .. وأن أطلب من الحاضرين أن يطلبوا ما يشاءون على حسابى وأعلنهم أن عبد ربه صرماتى سندويس قد أصبح ذا مال ، وأنى رغم مظهرى رجل غنى .

وهممت فعلا .. بالنهوض والصياح .. ولكنى فجأة تذكرت أمرا بدد فى نفسى كل ما بها من فرح وغبطة ، وهبط علىّ كحمل أثقل كاهلى .. وأنقض ظهرى .. ووجدت أنى قد استرخيت على مقعدى منهكا لا أستطيع نهوضا ولا صياحا .

تذكرت ما سيحدث عندما أذهب بالنقود إلى البلدة ، وأنبئ بها أم أحمد .. ماذا يمكن أن تقول لى ؟!

ستهتف بى صائحة : « ربنا تاب علينا من بلد السوء .. ياالله على مصر .. تفتح دكان جزماتى فى بولاق .. وتبقى بنى آدم » .

أنا لا أكره بولاق ، ولا أكره مصر .. ولكننى فقط لا أعرف أحدا هناك ، ولا يعرفنى أحد .. إنى فى بلدتنا كل شىء .. أما هناك فسأكون لا شىء .. سأكون قشة فى عباب متلاطم الأمواج .. إنى هنا صرماتى البلدة .. بلا شريك ولا منازع .. وإنى مغنيها ، ومطربها .. ومحدثها ، ومضحكها .. إنى البلدة ، والبلدة أنا .

ترى كيف أكون فى بولاق ؟!

وأحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ، ونهضت من مكانى متثاقلا ، وأخذت أجوب الطرقات على غير هدى مطرق الرأس ، مهموم القلب .. وقد أخذت الذكريات تتزاحم فى رأسى وتغلى فيه كأنه مرجل ، ذكرت بلدتى العزيزة ، وأهلها الكرام .. تذكرت غناءنا ومرحنا وضحكنا وطربنا .

تذكرت شاطئ الترعة صباحا وقد أقبلت عليه أم السعد والسيدة وفرح يحملن البلاليص على رءوسهن ، ويتهادين فى خطاهن ، وقد افترت ثغورهن ،

وشاعت فى أساريرهن السعادة والهناء .

تذكرت صندوق وشاكوشى ومقعدى و« براطيشى » و« صرمى » و« جردلى » . تذكرت الجامع على شاطئ النيل وصلاتنا جماعة ، تذكرت كل شىء ووجدت الدمع يهمى من عينى مدرارا ، إنى أحب بلدى بكل ما فيه ولا أرضى به بديلا و« لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى » .

وفجأة توقفت فى مكانى ودون أن أشعر وجدتنى أخاطب نفسى قائلا :

« يا عبد ربه يا صرماتى ، يا من لم تنجب الحياة أغبى ولا أحمق منك ، يا من تغرق فى شبر ماء ، قاتلك الله من حمار أبله ، فيم كل هذا التفكير وهذا الحزن ؟ هل نسيت أن المرحومة خالتك لم تهب ما وهبت إلا لغرض واحد هو إسعادك ؟ إنها لم تترك لك ورقة اليانصيب إلا لأملها فى أن تربح ، ولم تأمل فى أن تربح إلا لرغبتها فى أن تجلب لك الهناء والسعادة ، فهل حققت غرضها ؟ كلا والله ، لقد أغرقت نفسك فى الهموم . إن النقود لا قيمة لها إلا إذا كانت وسيلة لجلب السعادة وطرد الشقاء .. أما إذا جلبت لنا الهم فلتذهب مع الشيطان ، أنا بغيرها أنعم بالا ، هيا أيها الأحمق ، أسعد نفسك وحقق غرض خالتك ونفذ وصيتها » .

وانطلقت أقهقه .. وأخذت أعدو فى الطريق راقصا والناس ينظرون إلىّ نظرتهم إلى ذى جنّة .. ثم أمضيت يومين فى البندر وأنا منهمك فى جلائل الأعمال .. وفعلت ما يمكن أن يسعدنى .. ثم عدت إلى البلدة .. خاوى الوفاض .. وبعد بضعة أيام .. وصلت البلدة عطايا المحسن المجهول ، وأقسم لك أنى ما كنت أستطيع أن أكون أكثر هناء أو أنعم بالا .

ثم توقف عن الحديث .. كأنه أتم القصة .

وصاح الشيخ على فاغرا فاه فى دهشة شديدة :

— إذن فهو أنت ؟

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعا بسلسلة السباب المعتادة :
ــ وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
ــ عايز إيه من عويس ؟
ــ مالك بتزعق كده يا واد ، انت اتجننت .
ــ أنا اللى اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
ــ يا واد وطى صوتك ، وماتزعقش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل الشاى .
ــ شاى ؟! كمان عايز شاى ؟! أهو ده اللى ناقص !
ــ أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
ــ طيب اتخمد احسن لك ، وخلينى أنام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
ــ يعنى مش حا تعمل الشاى ؟
ــ شاى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجعمز على السرير ، وسايبنى انام على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا ماتختشيش .
ــ عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
ــ فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح تيجى تترمى مطرحى هنا ، وتعمل الشاى وتحضر لى المية أتوضا .. أنا مابقتش حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى الدرس ، وتمليني كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن آوريك شغلك .. فاهم والا لأ
ــ لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين على

الحاج قطه

الحاج قطة .. هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه .. والذى تجرى حوادث قصتنا تحت قبته .. هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة ، وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين .

الساعة الرابعة صباحا .. وقد تمدد الشيخ مبارك فى فراشه ، وانطلقت أنفاسه فى شخير خافت ، وانحسر جلبابه الدمور المخطط عن ساقين كالأقلام البسط ، سمراء عجفاء ملساء جرداء ، وقدمين معروقتين مشققتين وركبتين نفرت منهما العظام حتى كادت تشق الجلد الواهن الرقيق .

ويبدو الجسد بعد ذلك . وقد أخذ الصدر فيه يعلو ويهبط ، ومع كل حركة منه يسمع « تزييق » كأنه نعل حذاء جديد يهبط إلى الأرض لأول مرة ، وتتدلى يداه طويلتين مسترخيتين من فتحتى كم الجلباب الواسع ثم يبرز العنق من فتحة الصدر .. وقد وصلته بعظام الترقوة والكتفين عدة عروق بارزة نافرة أشبه بحزمة من الأنابيب .

أما الوجه فلا يمكن تمييز سيماه إلا من بعد .. أما إذا حققنا فيه من قريب فنجده أشبه بقطعة أرض مستوية .. مليئة بالهضاب والوهاد والأخاديد والجروف ، وقد تناثرت فوق تجاعيد ذقنه الشعيرات البيضاء ، وتهدل الشارب

على فجوة الفم ، وبدت من فوقه هضاب الأنف مفرطحة منبعجة قد أطلت الشعيرات من فتحتيها وتناثرت المسام على سطحها .

وتبدأ أولى بشائر اليقظة باهتزاز فى الجفنين وارتعاش فى الحاجبين .. ثم يمد أصابعه الطويلة فيحك فجوتى عينيه ، ويفتر فاه على أشده فى تثاؤب حاد تتقلص معه عضلات بطنه ويمد ذراعيه مشدودتين متمطيا بكل ما يملك من قوة ، ثم يعود جسده إلى الاسترخاء ، وتمضى برهة يبدو فيها الرجل كأنه قد عاد إلى نومه مرة أخرى .. حتى نراه فجأة قد نهض بنصفه الأعلى .. ثم أدلى ساقيه من الفراش ، وتنحنح وسعل وبصق .. ثم صاح بصوت متحشرج :

— عويس .

وتذهب « عويس » الأولى مع الريح .. فيكرر الرجل النداء مرة أخرى بصوت أشد :

— يا واد يا عويس .

وتذهب الثانية كما ذهبت الأولى ، ويتكرر النداء مرة ثالثة ورابعة ، وفى الخامسة يبدأ عويس فى التقلب والتململ ويزفر زفرة شديدة .. ثم يعود إلى سباته .

ويطلق الشيخ مبارك السادسة .. مصحوبة ببعض ألفاظ السباب والنهر والزجر فيظهر مفعولها الحاسم فى إيقاظ عويس .. فيجلس القرفصاء على فراشه المكون من قطعة من الحصير فرشت على الأرض فى الطرقة الضيقة الكائنة أمام حجرة الشيخ مبارك .

ويبدو عويس وقد تكور فى جلسته مرتديا فانلة سمراء وسروالا من الدمور واسعا فضفاضا .. تدلت تكته الطويلة ذات الشرابة على الأرض ، ونتأمل « الواد عويس » فنجد أن خير ما يوصف به أنه « جته » أو « شحط » أو « فحل » عريض المنكبين .. متين البنيان قوى العضل .. فارع الطول .. أسرفت الطبيعة فى خلقه .. فوضعت فيه من مواد البناء الآدمى ما يكفى لعمل

اثنين .. بالراحة !

ويرفع عويس رأسه من بين ركبتيه .. فيبدو لنا وجهه على ضوء مصباح الغاز الذى تضطرب ذبالته على الرف . وجه فلاح نموذجى عريض الصدغين .. كبير التقاطيع ، خشن المنظر .. بادى الطيبة .

وينطلق النداء العاشر من حنجرة الشيخ مبارك .. فيأخذ عويس فى هرش جسده وحك رأسه .. ثم ينهض متثاقلا ، ويتحرك حركة لا إرادية .. فإنه لم يستيقظ بعد ، وتمتد يده إلى صفيحة مياه فى ركن الطرقة فيصب منها فى إبريق من الصاج ثم يتناول قصعة متسعة فارغة ويتحرك ببطء متجها إلى حيث يجلس الشيخ مبارك ، ويقف أمامه .

ويهبط الشيخ مبارك من فوق فراشه الخشبى فيجلس القرفصاء على الأرض ، ويبدأ الوضوء ، وبعد دقائق نراه قد اتخذ مكانه .. فى زاوية الحاج « قطة » يؤم المصلين فى صلاة الفجر .

هذا هو أول أعمال الشيخ مبارك .. أو سيدنا . كما تعود أهل قرية « سلنت » أن ينادوه ، وكان الرجل يحس فى قرارة نفسه أنه سيدهم فعلا .. فقد كان ذا شخصية مسيطرة . وكان يتمتع بقدر من الخبث يهيىء له التحكم فيمن حوله من السذج البسطاء ، والسيطرة على عقولهم .

وكان الشيخ مبارك يمثل فى القرية السلطة الدينية والروحية والعلمية والأدبية . فقد كان ـــ بمسبحته وتمتمته وتعاويذه وصلواته ـــ إمام القرية ومقرئها وملجأ أهلها فى الكوارث والنوازل . وكان ـــ بعصاه ومنظاره وكتبه الصفراء ـــ معلم القرية ومرشدها وواعظها وناظر كتابها .

وكان الرجل يباشر كل أعماله تلك ، من صلاة وتدريس ووعظ وإرشاد ونوم وأكل واستقبال ضيوف وشتيمة عويس .. فى مكان واحد ، هو مقره المختار .. زاوية الحاج قطة .

والحاج قطة هذا الذى يقيم صاحبنا فى ضريحه ، والذى تجرى حوادث قصتنا

تحت قبته .. هو أحد أولياء الله الوهميين من ذوى البركات والكرامات الذى يزعم أهل القرية أنه كان يتقمص فى حياته جسد قطة ، فيمر على أهل القرية ليسدى إليهم النصح ويمد لهم يد المعونة وأنه كان يتحدث وهو فى جسد القطة كما نتحدث نحن الآدميين . وأنه كان إذا مرض أحد القرية يتولى علاجه ، ويقوم عنه بحرث أرضه وريها وبكل ما يؤديه فى صحته .

هذا هو بعض ما يتحدث به أهل القرية ، وهناك غير ذلك الكثير من الكرمات الخرافية التى ينسبونها إلى ولى الله الشيخ قطة المبجَّل .

ويعتبر الشيخ مبارك خليفة ولى الله بين أهل القرية ويزعمون فيما بينهم أن الشيخ قطة لا يفتأ يهبط إليه بين آونة وأخرى .. ليزوده بالبركات والنفحات الطيبات .

ولا يكاد الشيخ مبارك ينتهى من تأدية أول أعماله ، وهى صلاة الفجر . بما يتبعها من تسبيح وتمتمة وقراءة أوراد ، حتى ينطلق من حنجرته النداء المعتاد :

— عويس .

ويصل النداء إلى أذنى عويس العريضتين كأذنى حمار ويكون الرجل منهمكا فى تنظيف « التعريشة » الكائنة خارج الزاوية ورش أرضها بالمياه ورى العنبة التى تتسلق قوائمها وتمتد على سقفها ، وتمثل التعريشة جناح العلم فى منشأة الشيخ قطة .. أى كتاب الأرض ودكة خشبية وضع بجوارها مقرعة وزير اتخذ مكانه فى أحد أركان التعريشة .

ويتحرك عويس فى صمت متجها إلى الطرقة الفاصلة بين ضريح الشيخ وفراش الشيخ مبارك الذى يتخذه هو مرقدا له .. فيجلس القرفصاء أمام وابور غاز ويأخذ فى إعطائه بضعة أنفاس ثم يتناول المصباح الغازى فيشعل ذبالته . وينتظر برهة حتى يسخن ثم يضع فوقه برادا أسود بقاعه بقايا شاى يصب عليه الماء من الكوز الكائن بجوار الزير ، ثم يحمله وكوبا صغيرا إلى الشيخ مبارك .

وأخذ الشيخ مبارك فى احتساء الشاى الأسود فى صمت وإطراق وجلس عويس على مقربة منه يحتسى نصيبه من كوب آخر .

وفجأة قال الشيخ مبارك فى صوت عميق :

ـــ يا عويس .. يبدو لى أن أجلى قد قرب .

ونظر إليه عويس فى فزع وقال مأخوذا :

ـــ لا تقل هذا الكلام يا سيدنا الشيخ .. ربنا يعطيك طول العمر .

وهز الشيخ مبارك رأسه ببطء وقال فى إصرار :

ـــ أنا أعرف ما أقول .. إن أحلامى لا تخطئ قط . لقد زارنى فى المنام الحاج قطة وكان يرتدى جلبابا أبيض ، ويشع من عينيه بريق خاطف وقال لى يا شيخ مبارك إنى فى حاجة إليك .. فقلت إنى خادمك وطوع أمرك ، فقال إنى أريدك أن تصعد معى .. فسألته :

ـــ متى ؟

ـــ الآن .. هل لديك مانع ؟

وهممت أن أجيبه « كلا » ولكننى تذكرتك ، وقلت لنفسى إنه لا يجب أن أتركك هكذا فجأة ، وإن أقل واجبات اللياقة والذوق تقتضينى أن أنبئك عند الرحيل بأننى راحل ، ولا يجب أن أتركك بعد هذه العشرة الطويلة دون أن أودعك . ودون أن أزودك بالنصائح والوصايا ، ثم إن هناك أمرا أجل من هذا وأخطر شأنا ، وهو أننى يجب ألا أرحل قبل أن أترك خليفة من بعدى .. كما تركنى الشيخ قطة خليفة من بعده ، وعلى ذلك فقد قررت أن أطلب من الشيخ قطة أن يمهلنى قليلا وقلت له :

ـــ أعطنى مهلة يا شيخ قطة .. حتى أبحث لى عن خليفة ، قبل أن أرحل معك .

ـــ ومن تظنه يصلح لخلافتك ؟

وبحثت فى ذهنى عن إنسان فى القرية يصلح لخلافتى ، وأخذت أستعرض

أهل القرية واحدا واحدا .

الشيخ زينهم ؟ منافق .. كذاب أشر .. الشيخ عتريس ؟ شر منه .. الشيخ فضل ؟ أحمق مأفون .. على أبو المعاطى ؟ زير نساء .

وهكذا أخذت أعجم عودهم فلم أجد منهم واحدا يصلح لخلافتى .

وأخذ الشيخ يستحثنى بقوله :

ـــ ما بالك لا تجيب ؟

وفجأة وجدتك تقفز إلى ذهنى ، وشعرت باسمك يتخذ مكانه على طرف لسانى وقلت له :

ـــ عويس .

ـــ عويس .. يصلح لخلافتك ؟!

ـــ أجل .. عويس .

ـــ عويس ، الحمار الأبله الأبكم ، يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! ما هذا بحديث عقلاء .. قل شيئا آخر .

ولكنى مع ذلك أصررت عليك وصممت على ألا أتخذ لى خليفة سواك ، وقلت للشيخ قطة إننى مسئول عنك .. ولكنه قاطعنى فى سخرية :

ـــ عويس يصبح خليفة الشيخ قطة ؟! والله لقد هزلت . الواد عويس الغبى ، يصبح سيدنا الشيخ عويس ؟! على أى حال أنت وشأنك .

وانطلق الشيخ قطة يقهقه ضاحكا .

وصمت الشيخ مبارك وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع بصره إلى عويس وقال فى صوت عميق :

ـــ وهكذا يا شيخ عويس ، لا بد أن تعد نفسك لأن تتخذ موضعى بعد الرحيل .

ونظر عويس إلى الشيخ مبارك فى ذهول شديد ، وأخذ يتمتم قائلا : « الشـ عويس » .. « سيدنا » ثم بدأ يتصور نفسه وقد ارتدى العمامة والمنظار وأمسك

بالمسبحة والعصا ، وأقبل الناس عليه يقبلون يده ويمسحون جباههم فى طرف جبته زيادة فى التبرك .

من كان يظن هذا ..؟! عويس .. يرث الخلافة ، ويضحى رب الضريح لا شريك له فيه .. ينام على الفراش ، ويأخذ الهدايا من كل حدب وصوب .. شاى ، وسكر ، ومنين ، وبن ، وعسل ، وفطير ، وبلح .. هذا والله ما لم يجسر على أن يأمله مرة واحدة فى حياته الراكدة .

وأى شىء يطلب منه تأديته فى مقابل هذا ؟. الصلاة ، « بسيطة » ، والتسبيح « أمر سهل » ، والتمتمة « مسألة هايفة » ماذا يطلب منه أكثر من هذا ؟.

وفجأة تذكر الكتاب والتلاميذ ، والتعريشة ، والألواح الصفيح .. هذه هى المعضلة الكبرى ، والعقبة الكئود .

وعض على أصبعه فى غيظ وندم وبدت على وجهه أبلغ آيات اليأس والفشل وقال للشيخ مبارك فى صوت خافت :

— لكن يا سيدنا الشيخ .. دانا معرفش أفك الخط !

كيف يمكن أن يصبح خليفة الشيخ مبارك وهو يجهل هذه الطلاسم التى يعلمها الشيخ للصغار من الصبية .

آه لو كان يعرف فك الخط .. لهان كل شىء .

يا له من حمار كسول !، ما ضره .. لو كان اتخذ مجلسه بين التلاميذ .. فهتف معهم : زين وفتحة زا : ره وفتحة را ، عين وفتحة عا .. زرع .

ونظر إليه الشيخ مبارك نظرة فاحصة ، وقال فى لهجة الواثق المطمئن :

— لقد فكرت فى كل هذا ، لا تخش شيئا ، فسأتولى أنا أمرك ، لا تقلق نفسك .

— كيف .. ألم تقل إنك راحل الليلة ؟

— أجل ! ولكننى أستطيع أن أهبط إليك حين أشاء . سأكون معك بروحى

أفعل لك ما تشاء .. كل ما عليك هو أن ترتدى العمامة والمنظار والجبة وتمسك العصا والمسبحة وتترك الباقى لى .

وهز عويس رأسه فى حيرة وقال متسائلا :

ـــ لست أفهم ما تقصد !

ـــ سيصاحبك عفريتى أينما حللت يفعل لك كل ما تريد ويرشدك إلى كل ما تبغى .. ولن يبصره أحد سواك .. ما رأيك ؟

ووجد عويس أن المسألة أعوص من أن يستطيع فهمها أو التفكير فيها ، ولم يجد خيرا من أن يكل أمره إلى الشيخ مبارك كما تعود أن يفعل فى كل شىء ، وقال فى لهجة ملؤها الاستسلام :

ـــ أمرك يا سيدنا .

ومر اليوم بعد ذلك بعويس ، وهو أشبه بالمذهول لا يعى من حوله شيئا ، لا يكاد يسمع الصبية يصيحون : زين وفتحة زا .. حتى يدق قلبه بشدة ، وتصيبه رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ويقطر من جبينه العرق من فرط الوهم والخوف .

وانتهى اليوم وذهب الشيخ مبارك إلى فراشه وعويس ينظر إليه نظرات وجلة خائفة كأنه ينظر إلى عفريت .

ورقد الرجلان ، ووصل إلى أذن عويس صوت شخير الشيخ مبارك أجش عميقا كأنه يصدر من جوف قبر .

وبعد لحظات استغرق عويس فى نوم مضطرب ملؤه الأحلام الملأى بالعفاريت والأشباح .

* * *

وفجأة استيقظ على صوت يصيح به :

ـــ عويس .

من الذى ناداه ؟ إنه صوت يشبه صوت الشيخ مبارك ولكنه قطعا ليس صوت الشيخ مبارك ، فإن الشيخ مباركا قد رحل .

أجل ! لقد صعد إلى جوار الشيخ قطة . وأضحى عويس الآن ، خليفة الشيخ قطة ، بلا شريك ولا منازع .

ومرة أخرى سمع الصوت العفاريتى ينادى :

— عويس .

ويح العفريت الأحمق المغرور ! ما باله ينادى هكذا ، كأنما هو الشيخ مبارك نفسه ؟

لعله نسى أو تناسى مركزه هنا ، إنه مجرد خادم لا أقل ولا أكثر .. كل ما عليه أن يؤدي ما يطلبه منه ، ويقضى له ما يحتاج إليه .. وهو بعون الله لن يحتاجه إلا فى مسألة فك الخط . وتعليم الصبية ما تيسر من ضرب وزرع وأكل .. أما بعد ذلك فالله الغنى عنه ، إنه سيقوم وحده بكل ما تبقى من صلاة وتسبيح وتمتمة .

أجل ! هكذا كان الاتفاق ، أو هكذا وعد الشيخ مبارك قبل صعوده .. لقد أورثه كل ما ملك من ولاية ومشيخة ، وترك له الضريح بأكمله ، ولقد كان جديرا بأن يبقى كل ذلك له وحده لا يشاركه فيه إنسان لولا غباؤه وجهله بفك الخط ولكن الشيخ ترك له عفريته فى خدمته وتحت أمره .

فالوضع الآن قد تحدد بوضوح ، فعويس قد أضحى الشيخ مباركا .. وما تبقى من الشيخ مبارك . أى عفريته قد أضحى عويسا .

فالواجب إذاً أن يرقد عويس فى الفراش ، وأن يستلقى العفريت .. إذا كان لا بذ له من الاستلقاء فوق الحصير .

وعلا الصوت مرة ثالثة يصيح ناهرا :

— وله يا عويس يا ابن الصرمة القديمة .

— ما شاء الله ، ما شاء الله .. هكذا يبدأ العفريت خدمته .

طبعا هو يظنه يجهل حقيقة الموقف ، ويحاول أن يشتمه فيتخذ منه موقف السيد كما كان يفعل الشيخ مبارك وهو يبدؤه بهذا السباب كما كان يفعل الشيخ ، ظانا أنه خادعه ومخيفه ومخضعه لسلطانه .

والله ليرينه عاقبة خداعه وسفالته .. صبرا يا عفريت الكلب !
ومرة رابعة .. انبعث الصوت مندفعا بسلسلة السباب المعتادة :
ــ وله يا عويس .. يا تور .. يا ابن التور .
لا .. لقد زادها .. لا بد من ردعه وإلا ساق فيها .
وجلس عويس القرفصاء وصاح بأعلى صوته حانقا :
ــ عايز إيه من عويس ؟
ــ مالك بتزعق كده يا واد ، انت اتجننت .
ــ أنا اللى اتجننت ؟ والله عال يا ولاد .. أنا برضك اتجننت ؟
ــ يا واد وطى صوتك ، وماتزعقش كده .. وفوق لنفسك ، وقوم اعمل الشاى .
ــ شاى ؟! كان عايز شاى ؟! أهو ده اللى ناقص !
ــ أنت يا واد جرا لعقلك إيه النهارده ؟
ــ طيب اتخمد أحسن لك ، وخلينى أنام .. إحنا ما صدقنا ربنا تاب علينا .
ــ يعنى مش حا تعمل الشاى ؟
ــ شاى لما يهرى جوفك .. مش كفاية مجعمز على السرير ، وسايبنى انام على الحصيرة .. قوم فز .. قامت قيامتك وانتصب ميزانك ، قليل الحيا ماتختشيش .
ــ عويس .. فوق لنفسك يا عويس .
ــ فوق انت ، كل واحد لازم يلزم حده هنا ويعرف مركزه .. من هنا ورايح تيجى ترمى مطرحى هنا ، وتعمل الشاى وتحضر لى المية أتوضا .. أنا مابقتش حاجة قليلة ، أنا الشيخ عويس على سن ورمح .. واعمل حسابك تقف ورايا فى الدرس ، وتملينى كلمة كلمة ، واوعى تغلط لحسن آوريك شغلك .. فاهم والا لأ .
ــ لا .. الواد لازم جرى لعقله حاجة أكيد .. لازم عايز له قلمين على

سداغه يفوقوه .

وسمع عويس صوت القبقاب الخشبى يقرع البلاط مقتربا منه ، فظل يصيخ السمع حتى وجد شبح الشيخ يستقر أمامه فجأة بالعباءة على كتفيه والعمامة فوق رأسه وصاح به :

ـــ إيه يا واد الكلام اللى انت بتقوله ده .

ـــ وكمان لابس العمة والعباية .. طب اقلع بأه بالتى هى أحسن ، اقلع احسن لك يا نصاب يا حرامى ، الحاجات دى كلها بقت بتاعتى ، اقلع بسرعة ، بلاش نصب عفاريت .

ـــ أقلع إيه يا واد ؟

ـــ اقلع العباية والعمة بتاعة الراجل .

ـــ أنهى راجل ؟

ـــ الشيخ مبارك .

ـــ طب ما أنا الشيخ مبارك .. يا أعمى العين والقلب .

ـــ وكمان بتقول إنك الشيخ مبارك ؟

واندفع عويس يقهقه ساخرا ، وعندما هدأ ضحكه ، قال فى هدوء ناصحا :

ـــ بقى اسمع يا أخينا . أنا ماحبش المناكفة ولا ينطليش علىّ شغل العفاريت ده .. الشيخ مبارك راح وانتهى أمره ، هوا اللى قايل لى كده بلسانه ، امبارح قال لى ان الشيخ قطة زاره فى المنام وقال له إنه عايز ياخده ، وإنه كان ناوى يطلع معاه لولا انه حب يوصينى على الشغل ويدينى شوية نصايح عشان اشتغل بداله ، ولما قلت له إن أنا معرفش افك الخط قال لى ماتخافش ، أنا حابعتلك عفريتى ، يعمل لك اللى انت عايزه .. يعنى انت دلوقت ماتزيدش عن خدام ، خدام فك الخط .. دى كل شغلتك ، فاهم والا لأ ؟ تقول لى وله يا عويس وله يا هباب ، وتفهمنى انك انت الشيخ مبارك .. ده كلام مايدخلش عقلى ، كلام نصب وتهويش .. فوت يالله اقلع العباية والعمه وحضر الشاى .. واتلم بالتى هى

أحسن .. أنا عايز عفريت ملحلح ونشط ، ماتعملش زى التنبل ، اللى اسمه عويس .. فوت ربنا يهديك .

ـــ اسمع يا عويس يا خويه .. ربنا يهديك انت ، الكلام اللى قولتهولك دا كان حلم ، وأنا لسة ما متش ، لسة عايش لغاية دلوقت ، الشيخ قطة خلف ميعاده ، فاصبر عليه شوية لغاية ما موت ، أنا دلوقت الشيخ مبارك ، صدقنى .

ـــ أيوه يا خوية خش فى عنيه خش .. أصلى حمار .. ينطلى عليه الكلام ده .. يروح الشيخ مبارك ، الله لا يرجعه تلاقى عفريت الشيخ مبارك .. فوت انجر اعمل الشاى ، واقلع اللى أنت لابسه ده .

وهنا نفد صبر الشيخ مبارك ، ورفع كفه ، وانهال بها على صدغ عويس بكل ما فيه من قوة صائحا :

ـــ قوم جاك خابط فى نافوخك . تور ابن تور ، قوم .

وقام عويس وتفرس فى وجه الشيخ مبارك لحظة وهو يعض على نواجذه ثم قال فى غيظ مكتوم :

ـــ برضك دا اللى انا عامل حسابه ، سكتنا له ، دخل بحماره ، بقى اسمع اما اقول لك .. هى زرع والا ضرب دى حاتجيب القليعة .. ياخى بناقص زرع وضرب .. مش ضرورى الأولاد يعرفوا الكلام الفارغ ده ، أدحنا طول عمرنا كويسين من غير زرع وضرب .. نقفل الكتاب ده ونفضها سيره .

وفكر عويس برهة . إن خير ما يفعله هو أن يمسك بالعفريت ويلحقه بصاحبه إلى حيث الشيخ قطة ، وبذا يخلو له الجو .

وفجأة رفع عويس هراوته ، وانهال بها على رأسه ، فخر على الأرض صريعا .

واستيقظ أهل القرية ، ليجدوا الشيخ مباركا مضرجا بدمائه ، قتيلا فى رحبة الدار .. أما عويس فقد استقر به المقام فى مستشفى المجاذيب ، متمتعا بالخلافة ، مصرا على أنه خليفة الشيخ قطة .

سى جمعه

سى جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم .. كان له سابق مجد وتالد عز .

لم يكن هناك شك فى أن هناك جديدا قد طرأ على « سى جمعة » .

وقبل أن نحاول شرح هذا الجديد الطارئ على « سى جمعة » لا بد لنا أن نشرح « سى جمعة » على قديمه .. أو على ما تعود أن يكون عليه قبل أن يطرأ عليه الجديد الطارئ .

سى جمعة .. أو جمعة أفندى .. أو جمع .. كما تعود أن يدلل من الأقربين إليه أو محمد محمد محمد عبد الرحيم جمعه .. أو كما تعود هو أن يكتبه فى أوراق الامتحانات .. أو كما كان يناديه الشيخ زينهم مدرس الخط العربى الذى كان يأبى إلا أن يناديه باسمه الكامل حتى ولو ناداه مائة مرة خلال خمس دقائق .

سى جمعة هذا .. إنسان لا أظن من السهل وصفه .. ولا من السهل معرفة مهنته .. ومحل إقامته .. أو فهم خلقه وشخصيته .. وإن كان أبرز ما فيه .. أو ما يمكن معرفته عنه .. هو أنه لاعب كرة قديم كان له سابق مجد وتالد عز .

ولسنا نعنى بذلك أنه قد أضحى « عزيز قوم ذل » .. فهو لا يذل أبدا مهما أصابه ، ولا يخنع مهما أخنى عليه الدهر ورق به الحال .. بل هو يرى نفسه دائما « كابتن » فى كل وقت وفى كل مكان .. فما استطاع الفقر والبهدلة ، والوهن

والعجز .. أن تنزع من رأسه أنه .. « الكابتن جمعة » السنترفوروارد الذى لا يشق له غبار .. ولا يقعقع له بالشنان .

واستمر جمعة طالبا فى المدرسة يقضى يومه على المقهى الكائن على ناصية الشارع فى لعب الورق « والطاولة » مع بقية الشلة المكونة من لاعبى الكرة الفاسدين والطلبة « المزوغين » .

واستمر جمعه فى البزوغ ومرت به أيام ذهبية .. اشتهر فيها وتناقلت اسمه الألسن ، وأضحى يحس فى نفسه .. كلما سمع هتافا باسمه .. أو حمل على الأعناق كأنه زعيم قومى .

ولم يطل بنجمه البزوغ .. فسرعان ما أفل كغيره من لاعبى الكرة السريعى الأفول .. وبدأت نهايته بانحداره إلى السهر فى الكباريهات وباستبدالها بمقهى الوردة البيضاء .. كازينو استانبول .. وبدخوله فى دور « رفق » مع سنية بعزق .

وهكذا حلت نهايته كلاعب كرة .. وأغلقت فى وجهه النوادى .. ليفتح فى وجهه باب « سنية بعزق » على مصراعيه ويدب فى جسده الوهن والنحول والاسترخاء .. ومع ذلك فما نسى قط أنه الكابتن جمعة .. بل استمر حنينه إلى اللعبة يدفعه إلى مشاهدة كل مباراة من المباريات الكبرى .. وإلى « حشر » نفسه « والمنكرة » بين اللاعبين .

وانقطعت عن جمعة النقود التى كانت تدرها عليه قدرته فى لعب الكرة من النوادى ومن المباريات .. وأضحت موارده محصورة فيما كانت تعطيه إياه صاحبته الراقصة .

واستمر جمعة يرتع فى حياة بوهيمية صاخبة منهكة حتى كان ذات صباح لاحظت سنية أنه قد استيقظ مبكرا على غير عادته .. وأنه قد أقبل على حلاقة ذقنه بعناية ، وسألها أن ترسل ملابسه إلى الكواء .

ولم يكن هناك شك فى أن جديدا قد طرأ عليه ، وأنه مقبل على حدث جلل .

فما كوى بذلته منذ أن وضعها على جسده .. وما حاول من قبل أن يرتدى كرافته وأن يصلح هندامه .

واستفسرت أم سنية عن الطارئ الجديد فأنبأها فى ثقة أنه سيحصل على وظيفة محترمة .

وغادر جمعة الدار ، وسار — لأول مرة فى حياته — فى تؤده واتزان ، وقد كسا نفسه هيبة كبار الموظفين .

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة ، وهمس لنفسه : « والله عال يا ابراهيم .. يا فلاح يا ابن الفلاح .. بقيت من كبار القوم .. بس إياك ماتطلعش ندل وتنسى الجميل » .

وإبراهيم هذا .. هو إبراهيم الفيومى .. أو إبراهيم الفلاح ، الذى كان زميلا لجمعة فى المدرسة ، والذى كان موضع سخرية الطلبة وضحكهم لفرط ولعه بالكرة ، وخيبته فيها .

كان إبراهيم الفلاح يتمنى أن يكون لاعب كرة ، وكان ينظر إلى جمعة نظرته إلى أصحاب المعجزات ، وكان يحس له نفس الاحترام والتقدير الذى يحسه لسيدنا الحسين والسيد البدوى ، وكان أقصى رغباته هو أن يصاحبه فى المباريات ويحمل له حقيبته .

وفى ذات يوم تغيب أحد أفراد الفريق الثانى فى إحدى المباريات فتعطف جمعة عليه وأنزله بدل الغائب ، وهكذا حقق له أمنية طالما تلهف عليها ، ووهبه فرصة فى حياته يرتدى فيها فانلة الكرة المخططة والحذاء ذا الرباط الطويل الأبيض « والاستدز » .

وباعدت الظروف بين جمعة وصاحبه الفلاح ، واستقر إبراهيم مع أبيه فى البلدة يساعده فى إدارة مصنع النسيج الذى احتوى بضعة أنوال يدوية . ومرت الأيام وبدأ جمعة يسمع عن اتساع المصنع وتضخمه خلال الحرب حتى أضحى جمعة يقرأ بين آونة وأخرى الإعلانات الضخمة فى الصحف عن مصانع الفيومى

للغزل والنسيج وعن مدى أثرها فى النهضة الصناعية .

وفى ذات يوم استلفت نظره صورة صاحبه الذى كان ما زال يصر على تسميته « الواد الفلاح » وقد وضعت فى مكان بارز فى إحدى الصحف الصباحية الشهيرة وقد كتب تحتها « صاحب العزة إبراهيم بك الفيومى » وأنه يشكر كل من تفضل فهنأه بالإنعام السامى .

وفى ناحية أخرى من الصحيفة قرأ خبرا آخر أن الوفود ما زالت تترى على دار الوجيه إبراهيم بك الفيومى لتهنئته بالعطف السامى الكريم .

وفى ناحية ثالثة قرأ خبرا ثالثا مؤداه إن إبراهيم بك الفيومى صاحب مصنع الغزل والنسيج قد تبرع بمبلغ سبعة آلاف جنيه لمشاريع البر .

وأصاب جمعة دهش شديد وترك الصحيفة جانبا .. وشرد به الذهن بعيدا فى الأيام الخوالى .. أيام كان صاحب العزة يتلهف على أن يحمل حقيبته التى وضع فيها ملابس الكرة مرة واحدة وتذكر فرحته الشديدة عندما أدخل ضمن الفريق فى إحدى المباريات ، وتذكر عدوه فى الملعب وقد تدلى شرابه وبدت ساقاه كالجريد وانطلق بين اللاعبين كالثور الهائج دون أن تمس قدمه الكرة مرة واحدة .. أضحى صاحب عزة !! ووجيها !! ولم يستطع أن يكتم ضحكة انطلقت من فمه ، وأخذ يردد لنفسه « الفيومى بك ، الوجيه إبراهيم بك ، صاحب العزة » وانطلق يقهقه بشدة متذكرا منظر « الواد الفلاح ابن الفلاح » الذى بينه وبين الوجاهة ما صنع الحداد .

وفجأة مر بذهنه خاطر أفعمه سرورا .

هذه والله فرصة هائلة .

لِم لا يذهب إلى الواد إبراهيم بك ، فيأمره بأن يعطيه عملا فى مصانعه الكبرى ! إنه لا شك ما زال يحس له بعض الرهبة القديمة ، وما زال يعتِبره الكابتن جمعة ، أو جُمَع « أبو رجل دهب » وليس هناك أسهل عليه من أن يهبه منصبا محترما .. مدير فرع .. أو مدير قسم .. أو باشمهندس أو أى شىء من هذا

القبيل ؟

ووصل أخيرا إلى إدارة المصنع ، دار فخمة البناء مليئة بالحركة ، ودلف بين الحجرات سائلا عن إبراهيم بك فقاده أحد السعاة إلى مكتب السكرتير .

وسأله السكرتير فى ازدراء ظاهر :

ــ نقول له مين ؟.

ــ جمعة .. الكابتن جمعة .

وقلب السكرتير شفتيه ثم قام متباطئا ، فغاب برهة فى غرفة مجاورة ثم عاد يقول :

ــ ادخل .

وفتح الباب ودلف إلى الحجرة التى كتب عليها « المدير » ووجد « المدير » قد جلس على مكتب فخم ، وقد أحاط نفسه بأروع مظاهر الأبهة والوجاهة .

وارتبك جمعة ، فلشد ما وجد صاحبه قد تغير ، وبدت عليه سيما كبار الرجال وأضحى كل ما به وما حوله وما فوقه وما تحته وجيها فعلا ، اللهم إلا ذلك الوشم الأخضر ، الذى بدا على ظهر يده .

وتردد جمعة برهة ، ولم يدر كيف يقبل على صاحبه ، ولا كيف سيتلقاه صاحبه ، ولم يجد خيرا من أن « يسوق الهبالة على الشيطنة » ويهجم عليه ويأخذه بالحضن ، دون أن يعطيه فرصة الكبر والترفع .

وانتهى الصاحبان من العناق والتقبيل ، وجلس جمعة وقد وضع ساقا على ساق واندفع يذكر صاحبه بما مضى وبأيام زمان ، ولم يبد على إبراهيم بك أن تلك الذكريات تسره كثيرا ، وحاول جهده أن يختصر الحديث وأن يقود جمعة إلى الإدلاء بغرضه الرئيسى من الزيارة .

واسترسل جمعة فى سرد الذكريات قائلا وهو يقهقه بلا كلفة :

ــ والله زمان يا وله يا إبراهيم !

وانبعثت من عينى إبراهيم بك نظرة وجلة خائفة مترددة بين الباب وجمعة .

كان الرجل حائرا فهو لا يستطيع أن ينهر هذا الحيوان المندفع فى ثرثرته المشئومة الفاضحة لأنه يخشى عواقب هذا النهر ، ويخشى إن أغضب هذا الأحمق أن يمعن فى غيه وتنقلب ثرثرته البلهاء غير المقصودة إلى ثورة جامحة يثير بها ضجة كبرى ، بل ربما اعتدى عليه بالضرب قبل أن يتمكن السعاة من إنقاذه ، فهو لم يكن يتورع وهو تلميذ عن أى شيء ، حتى عن ضرب الناظر لو استدعى الأمر ، فما بالك الآن وبعد أن جاوز التلمذة وأصبح كما يبدو متشردا لا يأبه لعاقبة ولا يخشى نتيجة !

وابراهيم بك رغم بكويته ورغم العز والسؤدد والأبهة والفخامة التى يرفل فى حللها الآن قد وجد نفسه يتضاءل فجأة أمام هذا المتشرد الوقح فقد نجح فى جره معه إلى الماضى البغيض فإذا به يشعر أنه قد بات فعلا الواد ابراهيم الفلاح ، وأن الذى أمامه هو الكابتن جُمَع « أبو رجل دهب » ذو الحول والشهرة والسلطان .

وهكذا كان من المتعذر .. بل من المستحيل .. وقفه عند حده .. وإسكاته عن ترديد ذكرياته المزعجة المشينة ، وكذلك كان من المستحيل أيضا السكوت على هذا الحال وتركه يستمر فى ثرثرته الخطيرة اللانهائية .. لا لأن إبراهيم يتأذى من سماعها .. فقد كان يستطيع سماعها بسهولة .. بل ربما لو كانت على حدة لوجد فى ترديدها بعض المتعة .. ولكن لأنه كان يخشى أن يدخل السكرتير أو أحد الموظفين فجأة فيصل إلى أسماعه بعض ذلك الهذيان الذى يهرف به صاحبه .

واستمر جمعة يقول :

ـــ فاكر يا ابراهيم .. أيام ثانوى .

وهم ابراهيم بأن يقاطعه قائلا :

ـــ فاكر يا سى جمعة .. فاكر كل حاجة .. بس مافيش لزوم للحاجات دى دلوقت .. الله لا يسيئك . ؟

ولكن جمعة لم يترك له الفرصة لمقاطعته فقد استرسل قائلا :

ـــ فاكر لما هفتك نفسك على لعب الكورة فرحت مسهينا وقالع البنطلون ونازل الملعب تجرى ورا الكورة باللباس الطويل الدمور ابو دكة بشراشيب مدلدلة وقعدت تبرطع زى الحمار الحصاوى .. والتلامذه يسقفوا لك ويقولوا : « الكورة فين ؟.. جوه لباسه » .

واندفع جمعة فى زوبعة من القهقهة وهو يردد قوله :

ـــ فاكر ؟

وهز إبراهيم بك رأسه فى يأس واستسلام وقال :

ـــ فاكر .

ـــ وفاكر لما ...

ولكن إبراهيم بك نهض من مقعده جزعا وقال فى توسل :

ـــ ثانية واحدة يا سى جمعة .. جى لك حالا .

ثم أسرع إلى الباب وأطل منه مناديا السكرتير قائلا :

ـــ يا على افندى ، وحياة أبوك ماتدخلش حد عندى دلوقت لحسن مشغول شوية مع الأستاذ جمعة .

ثم أغلق الباب وعاد إلى مقعده وقد هدأ باله بعض الشيء .

وفرك جمعه يديه ودفع طربوشه إلى الخلف كأنه يستعد لخوض معركة وعاد فى ترديد سلسلة الذكريات الممتعة قائلا ؛

ـــ فاكر يا ابراهيم لما ابوك جاب لك البتاو وقعد يستناك على الرصيف أمام المدرسة يوم الخميس .. وكان عندنا ماتش كورة ، وبعدين شيلناه اللبس مع عم عمارة فراش الكورة .. وبعد الماتش لبسناه الفانلة المخططة و ..

وأجاب إبراهيم مقاطعا وهو يتصنع الابتسام :

ـــ فاكر .. فاكر .. كانت أيام لذيذة .

وقال لنفسه :

« وبعدين فى ابن الكلب ده ... هوا قصده إيه بالضبط بالفضايح دى ؟! مش

يتكلم ويريحنى بقى ؟ » .

ـــ حقيقة كانت أيام لذيذة . اللى فات مايتعوضش أبدا .

وانتهز إبراهيم الفرصة وأسرع بتحويل دفة الحديث متسائلا :

ـــ وازاى الحال دلوقت يا سى جمعة .. فين أراضيك ؟

وبمنتهى البساطة أجاب جمعة :

ـــ فى وش البركة .

ـــ فين ؟!!..

ـــ فى وش البركة .

ـــ قصدى بتشتغل فين ؟

ـــ برضك فى وش البركة .

وأحس إبراهيم بالارتباك والخجل ولم يكن هناك وجه لسؤاله عما يعمله هناك إذ لم يكن العمل فى مثل هذا المكان ليخرج عن عملين أشرفهما مشين .

ولكن جمعة ألقاها بلا خجل وبدون أن يوجه إليه إبراهيم سؤالا :

ـــ بلطجى .

ولم يعرف إبراهيم بماذا يعلق على قوله ، فلاذ بالصمت . ولم يجد جمعة بدأ من أن يعلق هو .. فقال :

ـــ شغلانة مش بطالة .. مريحة .. أكل ونوم وراحة وخناقة قول كل شهر مره .

وساد الصمت وكان على إبراهيم أن يقول شيئا فتساءل لمجرد الحديث :

ـــ ومبسوط على كده ؟.

ـــ رضا .. ولو ان اليومين دول الحالة بطالة ، وابتديت ازهق من القعده ، وقلت الواحد لازم يشوف له شغلانة .

هكذا ؟!!.. إذن لقد وضح الأمر أخيرا .. لقد أتى جمعة باحثا عن عمل .. أو هو بالعربى .. يريد الانتقال من « وش البركة » إلى « مصانع الفيومى » .

وصمت إبراهيم وتظاهر بفحص بعض أوراق أمامه ، وعاود جمعة حديثه قائلا :

ـــ قعدت افكر .. اشتغل فين .. اروح لمين .. وبعدين بامسك الجرنان لقيت صورتك فيه .. أقول لك الحق اتخضيت افتكرتها صفحة الوفيات لكن بقرا كده لقيتك بقيت بيه وبقيت أشيتك رضا .. قلت فرجت .. مافيش حد حايلمني غيرك .. جدع طيب وطول عمرك على أد إيدينا .. ومش حايصعب عليك تلاقيلنا فى الشركة شغلة كده والا كده .

شغلة كده والا كده ؟!!.

وماذا يستطيع مثل هذا الحيوان الآدمى أن يفعل ؟! وكيف يأمن لوجوده وهو حريص على ترديد مثل هذه الذكريات بمنتهى البساطة .. وماذا يفعل إذا فاجأه أمام العمال بقول « فاكر لما ابوك جاب لك البتاو وقعد على الرصيف ؟.. إلخ » .

ولكن كيف يتخلص منه . إنها مشكلة .. إنها مصيبة ـــ كما يقولون ـــ وطبلت على دماغه .. على أية حال .. ليس هناك من حل الآن .. سوى مداراته ، ووعده بوظيفة والتخلص منه مؤقتا لحين التفكير فى حل له . فقد يستطيع أن يوجد له عملا فى فرع فى إحدى البلدان وبذلك يضمن بعده عنه ، ولكن أيرضى الكابتن جُمَع بوظيفة حقيرة خارج القاهرة ؟.. إنه يبدو كأنما يريد أن يجلس على مقعده هو أو أن يصبح على الأقل وكيل الشركة .

ما علينا .. نبعده الآن بأى وعد نصرفه به .

وقبل أن يفتح فاه ، برق فى ذهنه خاطر مفاجئ ، وجد فيه حل لمشكلة مستعصية ، حل يضرب به عصفورين بحجر .

تذكر أخته زكية العانس .. التى تنغص عليه حياته بطول شكواها من قلة الجواز وميلة البخت .. والتى لا تكف عن العراك مع زوجته حتى كادت تتسبب لهما فى الطلاق بضع مرات دون أن يعرف كيف يتخلص منها .. بعد أن

عجز تماما عن إيجاد عريس لها .

هذه فرصة سانحة لصفقة رائعة ، فجمعة لو هداه الله سيكون خير عريس لأخته زكية ، وليس أنسب من هذه اللحظة لانتهاز الفرصة والمقايضة بالوظيفة على زكية .

ووضع إبراهيم ابتسامة عريضة على شفتيه وهز رأسه وقال فى لهجة شديدة النعومة :

ـــ يا سلام يا كابتن جمعة ، إحنا ديكى الساعة لما تقبل تشتغل عندنا .. دا شرف كبير للشركة .. دى خطوة عزيزة يا بو رجل دهب .. أنا زمان نفسى آشوفك .. عشان نعيد أيام زمان .

وانتفخت أوداج جمعة وازداد اتكاء على كرسيه ، وأجاب بقوله :

ـــ أنا برضك عارف كده .. عارف إن أملى مش حايخيب فيك أبدا انت طول عمرك ولد طيب وابن حلال .

ولد ؟ يا بن الكلب ؟!! البكوية اللى دفعت فيها سبعة آلاف جنيه ما زالت ساخنة وتقول لى ولد ؟.

ولكن صبرا .. لا بد من تحملك فى سبيل التخلص من زكية وبلاويها .

واستمر إبراهيم فى قوله :

ـــ الشركة تحت أمرك ، أنا حاشوفلك وظيفة عال تناسبك كويس .. بس ..

ـــ بس إيه ؟.

ـــ بس اياك ربنا يهديك ويتوب عليك من السيرة اللى انت فيها .. ويلمك على بنت الحلال .. وتستكن فى بيت نضيف ظريف .

ـــ يا ريت يا ابراهيم يا خوية .. فين بنت الحلال اللى ترضى بى .

ـــ ليه هو أنت وحش .. دانت لقطة .

ـــ على العموم لما نترستأ فى الوظيفة يبقى يحلها المولى .

— المولى حاللها والأشيا معدن .. والوظيفة موجودة وبنت الحلال موجودة .

— بنت الحلال ؟!! أنت بتتكلم جد ؟.

— وابو الجد .

— إزاى بقى ؟.

— زى الناس .. أنت مانتاش غريب أنت زى أخويه وأنا طول عمرى اودّك وأحبك ، واهى فرصة نتناسب فيها ونخلى زيتنا فى دقيقنا .

— ولا آنا فاهم حاجة .

— ودى حاجة عايزة فهم .. أنا عندى أخت هدية .. إياك ربنا يجعلها من نصيبك .

— أختك أنت ؟!!

وظل جمعة محملقا بعينيه فاغرا فاه .. و« أخت إبراهيم » تطن فى أذنيه وتدور فى رأسه .

عجيبة ؟!!.. يتزوج أخت الواد إبراهيم الفلاح ؟.. أستغفر الله .. بل أخت إبراهيم بك الفيومى ؟!!.

من يصدق أن الزيارة كان يمكن أن تنتهى إلى مثل هذا !

لقد أتى يطلب وظيفة ، فخرج بوظيفة وعروس ، صدق من قال « الفقى لما يسعد تجى له خاتمتين فى ليلة » .

وكان لا بد من مرور فترة من الوقت حتى يهضم المفاجأة وتخف الصدمة وتهدأ النفوس وتستقر الفكرة فى الرءوس .

ولم تكد تمر الفترة المطلوبة ، ولم يكد يقلب جمعة الفكرة فى رأسه ، ويجدها فرصة العمر حتى قفز من مكانه وهجم على إبراهيم يحضنه ويقبله ويصيح به :

— يا سلام يا ابراهيم ، أنا طول عمرى قلبى يحبك ، وياما كنت اقول لهم الواد ابراهيم الفلاح ده ، حقيقى غبى وحمار ، لكن ابن حلال مصفى .

وأخيرا غادر جمعة المكتب بعد قراءة الفاتحة ، وبعد أن اتفق معه على زيارة منزلية يتم فيها اللقاء والاتفاق على بقية إجراءات الزواج .

وخرج جمعة يسير مترنحا نشوان وكأنه رأى ليلة القدر. ولكنه تذكر فجأة ما أنزله من علياء أوهامه وأحلامه ، وما ملأه غما وهما .

تذكر سنية بعزق !

ماذا يقول لها وكيف يتخلص منها ؟. كيف يخبرها أنه سيتزوج ؟

ولاح له الحل السعيد فانبسطت أساريره مرة أخرى ، المسألة بسيطة ، بل غاية البساطة ، ليس عليه إلا أن ينبئها أنه وقع فى صيدة غنية بحبوحة ، يستطيع أن يستنزف منها ما شاء من النقود ، فتهيئ لكليهما حياة سعيدة ، وأنهما لن يصيبهما ضنك بعد الآن ، بعد أن عثر على ذلك البنك المتدفق نقودا .

وعاد جمعة إلى صاحبته وروى لها القصة كما حورها فى ذهنه وأنبأها أن علاقتهما ستظل كما هى لن يصيبها وهن وأنها ستبقى هى الكل فى الكل ، أما الأخرى فلن تكون أكثر من مورد للمال .

وتقبلت سنية الأمر مستسلمة ، مصدقة ، فما كانت تملك أمام جمعة سوى التصديق والاستسلام ، بعد أن عاهدها أنها ستظل خليلته مهما حدث .

وبعد يومين ذهب جمعة إلى بيت إبراهيم مرتديا حلة جديدة اشتراها بعد أن باع بعض حلى سنية .

ووقف أمام البيت الفخم يقرع الجرس، وبعد برهة أطل الخادم النوبى ، فسأله فى تأدب :

— إبراهيم بيه موجود ؟

— لأ .. خرج .

— راح فين ؟

— المستشفى .

— المستشفى ؟ ليه كفى الله الشر ؟

ـــ عشان الست أخته حاتعمل عملية .

عملية ؟؟ وامصيبتاه .. حقا قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .

أية عملية هذه التى قد استحكمت الآن .. ألم يكن من الممكن تأجيلها حتى يكتب الكتاب ويصبح وريثها الشرعى ؟

والمصيبة العظمى .. أن « تحبك » المسألة .. وتموت فيها .

أهناك أسوأ من هذا حظا ؟..

تظل المرأة .. على قيد الحياة .. لا يقربها الموت .. طيلة هذا العمر المديد .. فلا تكاد تستحل له .. ولا يكاد يهم بالتهامها .. حتى تعمل عملية وتموت .

ولكن ما الداعى لهذه الوساوس .. إنه ستشفى بإذن الله .. إن الحظ قد واتاه ولن يغادره بعد ذلك .

وأخذ جمعة أقرب ترام ، وبعد نصف ساعة كان يجلس فى المستشفى ضمن الأهل والأقارب والأصدقاء .. وقد جلس منتفخا على أحد المقاعد كأنه الديك الرومى .. ولِم لا ؟! أليس هو أقرب الناس إليها ؟. أليس هو زوجها فى خلال أيام ؟

وطالت العملية .. وجمعة يدعو من قلبه أن يكلأها الله بالعناية .. على الأقل حتى يتم الزواج ... وبعد ذلك ليأخذها وقتما شاء وكيفما شاء .

وأخيرا انتهت العملية .

ترى ما النتيجة ؟!! خير يا رب خير .

ولكنه لا يرى على الوجوه المتجهمة أى خير .. إنه يسمع همهمة ودمدمة وتساؤل .. إن سيماهم لا تنذر إلا بالسوء .

ويحه !! أترى المرأة قد فعلتها وماتت .. من سوء بخته .. ولكنه لا يسمع صواتا ولا يبصر دموعا .. إذا كانت قد ماتت أفلا أقل من بعضِ النهنهة أم ترى البكاء محرما فى المستشفيات ؟

وأخيرا لم يطق الانتظار .. وكاد القلق والشك يقتلانه فاندفع إلى أخيها

إبراهيم الفيومى العابس الوجه المقطب الجبين وانحنى به ناحية قصية وسأله فى لهفة :

— إيه يا ابراهيم ؟! فيه إيه .. إزاى الحالة ؟

وأطرق إبراهيم برأسه ثم اقترب بفمه من أذن جمعة وهمس بعض كلمات .

ولم يكد جمعة يسمع الهمس حتى انطلقت منه صيحة لم يستطع كتمانها ووقف برهة واجما ذاهلا كأنما قد نزل عليه سهم الله .

وأخيرا أفاق لنفسه وغادر المستشفى وهو يهز رأسه حزنا وأسفا وقد بدت عليه أقسى آيات الخيبة والفشل .

ووصل إلى سنية بعزق فأذهلها مظهره اليائس البائس ، وأقبلت عليه تسأله فى دهش :

— إيه الحكاية ؟ مالك .. كفى الله الشر .. قوللى حصل إيه .. طردوك ؟.

— لا .

— أمال إيه ؟.

— رحت لقيت العروسة فى المستشفى بتعمل عملية .

وضربت المرأة بيدها على صدرها :

— وبعدين .. يا ندامة .. جرى لها إيه ؟

وأجاب جمعة وهو يهز رأسه أسفا :

— ولا قبلين .. قليل البخت يلاق العضم فى الكرشة . خلاص .. طارت

— طارت ؟

— أيوه طارت .. برمت .

— يعنى إيه طارت وبرمت ؟

— يعنى طارت من إيدى وبرمت من الجواز .

— قصدك ماتت ؟

— ما متتش ولا حاجة .

ـــ أمال جرى لها إيه ؟ فهمنى .. غلبتنى .

وصمت جمعة برهة ثم أطلق زفرة حارة ملؤها اليأس وقال فى أسى :

ـــ قلبت راجل .

ـــ قلبت إيه ؟

ـــ راجل .

ـــ مش ممكن ...

ـــ اللى حصل .. قعدت اربعين سنة نتاية .. ماحللهاش تنقلب دكر إلا لما خطبتها .. مش بقول لك قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة .. أربعين سنة وهما يقولولها الست زكية .. يوم ما نويت اخطبها دخلت المستشفى .. وطلعت زكى افندى .. بس اعمل إيه فى الفقر الدكر اللى مش عاوز يحل عنا ؟

ـــ ولا يكون عندك فكرة .. مره .. راجل مش حاينفد منا أبدا .. إذا كان حايرجع مره أهو من قسمتك .. وإذا استمر راجل مانيش عتقاه .

الأستاذ شملول

لم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير فى الرحيل ، أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطىء الحركة .. الذى كف عن النزهة .. منذ مشوار « جنينة النزهة » والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب « عشرة طاولة » ويشد أنفاسا من الشيشة .

وأخيرا قرر شملول أفندى الرحيل .

لقد كانت المسألة بالنسبة إليه مغامرة كبرى تحتاج منه إلى كثير تروّ وتفكير .

ومع ذلك فقد قرر ، وانتهى الأمر .

حرام عليه أن يضيع عمره سدى .. ما قيمة الحياة إذا جرت على هذا النمط البليد المتكرر المتشابه ؟

من يصدق أنه قد بلغ الأربعين دون أن يغادر القاهرة مرة واحدة ؟

أربعون عاما قضاها فى ذلك النطاق الضيق بين الناصرية والسيدة وشارع خيرت والدواوين .

فى طفولته .. كان مجال حركته وغدواته وروحاته لا يتعدى شارع الناصرية .. ففيه كان البيت وفيه كان الكتاب ، وفيما بينهما كانت تقع كل أمانيه وأقصى مطالبه من المقلة .. إلى بائع الكشرى .. إلى بائع البخت والزمامير .

إنه لا يذكر أنه قد تعدى شارع الناصرية إلا مرتين .. مرة كمستكشف .. حيث دفعه دافع الفضول وحب المغامرة والشقاوة إلى أن يتجاوز

الكتاب .. ويندفع إلى أقصى الشارع حتى بلغ شارع الكومى وتطلع ببصره إلى مجاهل ميدان السيدة ورأى بعينى رأسه المئذنة والترام وأبصر الناس .. يغدون فى الميدان ويروحون غير هيابين ولا وجلين ، وأتم المغامرة بشرائه قطعة من « حلاوة زمان » الملفوفة على العصا الطويلة ، وأخيرا عاد إلى بيته سالما آمنا .

تلك كانت المرة الأولى .. أما المرة الثانية فقد كانت فى العيد .. حيث خرج هو وأخته نفيسة وخاله عبد الصبور وقد لفوا العيش والسمك البكلاه فى صرة كبيرة ، قاصدين إلى « جنينة النزهة » .

ومن يومها .. لم يذهب إلى نزهة قط .. لقد كانت جنينة النزهة تقع فى حى جاردن سيتى ، وقد تبدو المسافة بينها وبين الناصرية الآن بعد أن كبر .. مسافة معقولة لا يصعب سيرها على الأقدام .. أما يوم ذاك وهو يعتبر ميدان السيدة فى أقصى الأرض ، فقد كانت جنينة النزهة أبعد من الجوزاء .. لا سيما وقد كان الحذاء جديدا عقر قدمه ، وأجبره على العودة حافيا .

وفى الصبا والشباب والكهولة .. لم يضطره شىء إلى الخروج عن نطاقه الضيق المحدود بين الناصرية والسيدة ، إذ لم تكن الناصرية الابتدائية أبعد من الكتاب ، وكانت مدرسة رقى المعارف وغيرها من المدارس الأهلية الثانوية التى تنقل بينها لا تتعدى ميدان السيدة ، وحتى بعد أن فشل فى المدارس وتاب عليه ربنا من تعب الدراسة وقرف الامتحانات ورزقه بابن الحلال الذى سعى إلى توظيفه .. كان مقر عمله لا يتجاوز شارع الدواوين ، واستمر راقدا بين جدران أرشيف وزارة المالية عشرين عاما .. كأنه خطاب حكومى عاجل !!

ولم يكن هناك ما يدعو شملول أفندى إلى التفكير فى الرحيل أو المغامرة ، وهو القعود الكسول البطىء الحركة .. الذى كف عن النزهة ، منذ مشوار « جنينة النزهة » والذى كانت أقصى متعته الجلوس على قهوة الانشراح القائمة على ناصية الشارع حيث يلعب عشرة طاولة ويشد أنفاسا من الشيشة .

ولقد قضى الرجل حياته عزبا .. لمجرد أنه يكره التغيير من حال إلى حال ،

واستمر يعيش مع أمه وأبيه بنفس الوضع والكيفية التى كان يعيش فيها وهو طفل فى الكتاب .

وعلى ذلك فيمكننا أن نرى مبلغ وقع المفاجأة فى نفس والديه عندما أنبأهما ذات يوم أنه سيسافر .

لقد ضربت أمه بيدها على صدرها وصاحت مذعورة :

ــ مسافر .. بره وبعيد .. تف من بقك سبع تفات . إيه يا خويا الكلام اللى زى السم اللى صابح تقوله ع الصبح .

ــ يام مسافر اتفسح .

ــ تتفسح ؟! وهو انت ناقص فسحة ، مانت طول النهار قاعد على القهوة .

ــ رايح اشم الهوا .. أغير مناظر .

ــ يا خويا اتحط .. آل مسافر يشم الهوا .. وهى مصر ضاقت ، عندك ام الشعور ، عندك سيدى ابو السعود . كل ده مش مقضيك ؟

ــ أنا معزوم عند واحد صاحبى فى المكتب ، ساكن فى قليوب ، فى بيت وسط المزارع والخضرة ، وبقاله آدى ست أشهر يلح على عشان أقضى يوم عنده .. نصطاد سمك ونركب حمير .

ــ أصلك شملول قوى .. وصيد السمك لزومه إيه ؟ وهو السمك اللى عند عبد المعطى وحش .. اقعد وأنا ابعت اجيب لك حتتين جزل على حتتين بياض تاكل صوابعك وراهم .

ــ مش الغرض يا ام ..

ــ أمال إيه يادلعدى ؟

ــ الواحد عايز يغير شوية .. عايز يجرى بين الغيطان فى الشمس والهوا ، ويقعد على الترعة يشم النسيم ، ويتمتع يوم فى العمر بحياة الريف .

ــ يا بنى اعقل ، دانت عمرك ما عتبت بره الشارع .

ــ عشان كده عايز اسافر .. حافضل طول عمرى كده محبوس فى

الناصرية !! يا شيخة حرام عليك دانا عمرى ماركبت قطر سكة حديد .

وهكذا أصر شملول على السفر واعتبر المناقشة التى جرت بينه وبين أمه بمثابة استئذان فى السفر ، وذهب إلى الديوان وبنفسه إحساس المقدم على أمر جلل ، ولم يكد يلتقي بعلى افندى القليوبى حتى ساق إليه النبأ الخطير وهو أنه قد اعتزم أن يلبى مطلبه وأنه سيسافر إليه اليوم بعد الظهر ، ويبيت عنده ليلته ويقضى يوم الجمعة بأكمله ثم يعود فى المساء .

وانتهى موعد العمل وذهب كل منهما إلى داره بعد أن اتفق مع القليوبى على أن ينتظره فى المحطة حتى يقوده إلى البيت الذى يبعد بعض الشيء عن المحطة وسط المزارع .

وعاد شملول إلى داره وأخذ يكوم ملابسه فى إحدى الحقائب القديمة ، وأمه تنظر إليه فى دهشة وتتساءل :

ــ يا بنى ليه دا كله ؟

ــ مين يعرف .. أهو من باب الاحتياط .. يمكن الواحد يعوز غيار والا حاجة .

ــ هى مش ليلة اللى انت ناوى تقضيها ؟

ــ أيوه ليلة ، لكن الواحد لازم يعمل حسابه دايما ، ده سفر .. انت مستهونة بالسفر .. يمكن القطر يتعطل فى السكة ، أو يمكن المواصلات تنقطع بين مصر ، وقليوب .. مش جايز .. مش برضه الواحد يعمل حسابه .

وهكذا غادر الدار وقد حمل الحقيبة ، وارتدى معطفا أبيض كان لأبيه فى سالف الزمن ...واغرورقت عينا أمه وهى تودعه وتقبله ، وجلس أبوه على سجادة الصلاة ، يضيف إلى استغفاره من سابق ذنوبه دعوات لتحفظ ابنه وتعيده من سفره بالسلامة .

وسار شملول أفندى بهيكله القصير النحيل ، وأشداقه المطبقة ، وأجفانه الغائرة ، وقد نفخ صدره ورفع رأسه ، وأخذ يختال فى مشيته بين أهل

الناصرية .. ولم ينس أن يمر على المقلة فيملأ جيوبه باللب لكى يستعين بقزقزته على طول السفر ، وابتاع رطلين بسبوسة من « أبو على الحلوانى » حتى لا يدخل على صاحبه ويده فارغة .. ثم تلكأ فى طريقه برهة أمام المعلم كرشة الجزار ، وصاح به بصوت عال أن يؤجل إرسال الممبار والمخ إلى الجمعة القادمة لأنه مسافر ، وكرر كلمة مسافر بضع مرات حتى سمعتها زكية بائعة الفجل .. التى كان بينها وبينه استلطاف خفى متبادل .

وخرج صاحبنا من حى الناصرية منتفخ الأوداج كأنه ذاهب إلى ميدان قتال ، ووقف فى شارع خيرت ينتظر ترام نمرة ١٢ الذاهب إلى المحطة ، ولم يطل به الانتظار حتى استقر على مقعد الترام بجوار السائق .. وزمر الكمسارى وانطلق الترام فى سيره .

وشيئا فشيئا بدأت الشجاعة تتبدد والهمة تزول ، ولم يكد الترام يتجاوز ميدان لاظوغلى حتى أحس برهبة شديدة وبدأ يستعرض فى ذهنه الأخطار التى يمكن أن يمر بها ، والمهالك التى يوشك أن يتعرض لها .

ألا يحتمل أن يكون قد ركب الترام خطأ .. وقد يحمله إلى حيث لا يريد ؟! حقيقة أنه قرأ رقم ١٢ ، ولكن من يدريه أن بصره لم يخدعه ؟ وعلى أحسن الفروض أنه قد أصاب الترام المضبوط ، ماذا تراه فاعلا عندما يلقى به الترام فى باب الحديد ، ذلك الفضاء الواسع المضطرب ؟

وبدأ يتصور جرائد الصباح وقد كتب على رأسها بالخط العريض الأحمر « موظف بأرشيف وزارة المالية .. يضل فى باب الحديد » .. يا للخجل ! ويا للكارثة !. ولكن .. لا .. لا .. لا بد أنه سيجد من يدله .. حقيقة أنه يخجل من السؤال ، ولكن لا بد له منه .

ووسط هذه الهواجس والأوهام ، وجد الترام يقف فجأة فى باب الحديد .. أجل ! هذا هو تمثال نهضة مصر .. وتلك هى ساعة المحطة .

واندفع شملول أفندى من الترام كالقذيفة ، خشية أن يتحرك الترام قبل أن

يهبط منه .. ولم يجد هناك معنى لمخاوفه السابقة ، والمحطة أمامه تكاد تصرخ قائلة « أنا المحطة » .

ولكن المشكلة الكبرى .. كانت فى كيفية العثور على القطار الذاهب إلى قليوب ، وفى كيفية قطع التذكرة .. إن هذه مسألة فى منتهى الخطورة .. فليس بمستبعد أن يركب قطارا خطأ ، يلقى به فى غياهب القطر المصرى .. وليس بمستبعد كذلك أن يذهب إلى شباك الدرجة الأولى فيلهف بائع التذاكر الجنيه الذى يملكه ويعطيه به تذكرة درجة أولى .

إن المسألة تحتاج منه إلى منتهى الحرص والتروى .

لعنة الله عليك يا قليوبى .. ما كان أغناه عن مثل هذه المرمطة والبهدلة واللخمة .. لو لم يغره بتلك المخاطرة لكان الآن مستريحا فى قهوة الانشراح .. يسترق النظر إلى زكية بائعة الفجل .

وبستر من الله وجد نفسه أمام شباك الدرجة الثالثة لقطار بحرى المار بقليوب ، وبفضل الله وجد نفسه يستقر على أحد مقاعد الدرجة الثالثة بجوار النافذة ، وقد أخذ قلبه يدق خشية ونشوة وطربا .

الحمد لله .. جت سليمة .. إن المسألة فى غاية السهولة .

وتحرك القطار ، ومرة أخرى بدأ الخوف يداخله .. وساءل نفسه ماذا يكون العمل لو لم يتوقف القطار فى قليوب أيقذف بنفسه منه وهو سائر ؟ أم يعدو إلى السائق ويأمره بالوقوف .. أم يسلم أمره لله ويذهب مع القطار إلى حيث يذهب ؟

على أية حال .. لو قدر الله وحدثت الكارثة ، فإنه لن يغادر القطار حتى يعيده إلى القاهرة .

أجل ! هذه أضمن العواقب ، فإن القطار لا بد عائد .. إن آجلا أو عاجلا ، إلى مقره بالقاهرة .

وأحس بالطمأنينة تعود إلى قلبه ، وبدأ يستعرض فى ذهنه المتع التى يوشك أن

يحصل عليها ، ويتصور نفسه وقد ارتدى الشورت والقبعة وأمسك بالسنارة ، وجلس على شاطئ الترعة يصطاد .. ثم يتصور نفسه وهو راكب صهوة جواد ينطلق به بين الحقول .. ياليت زكية بائعة الفجل تراه وهو فى هذه « الأملة » .. ولكن هب الحصان قد جمح به فأوقعه فى الترعة .. فمات غرقا .. لا .. لا .. لا داعى للحصان .. إنه يستطيع أن يدعى أنه قد ركبه .. دون أن تكون به من حاجة إلى ركوبه فعلا .

أجل !.. لا داعى هناك لأن يلقى بنفسه إلى التهلكة .. ما دام يستطيع أن يكذب ويبالغ ويؤلف ما شاء من المغامرات والأقاصيص .

ولكن يجب أن يرقب المحطات جيدا .. يجب ألا يترك ذهنه يشرد به فيضيع عليه المحطة .

« قليوب » .. أجل هذه قليوب .. الحمد لله ، إن المسافة قصيرة جدا ، أقصر مما كان يتصور .

وقفز من مقعده وتناول الحقيبة ، واندفع يعدو من القطار إلى رصيف المحطة .

ووجد القليوبى فى انتظاره فأقبل يصافحه فى شوق كأنه لم يره منذ سنين ، وهز رأسه فى إعجاب وتقدير وقال ببساطة « رحلة لطيفة ، مش بطالة » ، ووضع يده فى ذراع صاحبه وهم بالسير ، ولكن صاحبه لم يتحرك ، بل بدا عليه التردد وأخذ يهمهم فى اعتذار ، ثم بدأ يفصح عن همهمته قائلا :

ـــ أنا متأسف أوى يا شملول افندى .. لأنى مضطر استأذن منك ، علشان انزل مصر .. لأن اختى بعتت لى اروح لها حالا .. على العموم أنا مش حاغيب عليك يعنى بالكتير قوى خارجع تسعة مساء ، وانت مش غريب ، البيت بيتك ، خد حريتك خالص .. أنا حاوصلك للبيت واديك المفتاح وارجع علشان الحق القطار النازل على مصر .

وبوغت شملول أفندى من قول صاحبه .. وبدا عليه التردد ، وهم بأن يطلب

منه العودة معه ، إذ وجد المسألة قد أضحت مغامرة فعلا .

ولكن ماذا يقول ؟

يقول إنه يخاف أن يمكث فى البيت وحده ؟

لا .. لا .. يجب أن يكون أشجع من ذلك ، وأثبت جنانا ، ماذا عليه لو بقى وحده حتى يعود صاحبه ؟! ثلاث ساعات ليست بالشيء الكثير .. ثم إنه ليست هناك عفاريت ولا غيلان فى قليوب .

وهكذا سار مع صاحبه ، وبدأ الاثنان يتوغلان فى الممرات الضيقة بين المزارع ويدوران يمنة ويسرة حتى توقفا أخيرا أمام بيت أبيض متواضع أشبه بالمنادر ، وقد ألحق به فناء خلفى وضعت به بعض الأقفاص الفارغة ، وتكعيبة عنب ، وبرج حمام مهجور .

وخذل شملول من منظر البيت ، وكانت الظلمة آخذة فى الانتشار ، والضوء الباهت يتبدد ، والمكان قد لفته وحشة وسكون .

ولم يكن هناك مجال للتردد ، فقد سلمه القليوبى المفتاح فى يده وقال له « البيت بيتك » ، وانطلق يعدو إلى المحطة .

ما شاء الله ، من يستطيع أن يتصور هذا ؟

أهكذا يقف وحده .. وسط تلك القفار الموحشة .. والظلمات المدلهمة ، وهو غريب وحيد ؟

حتى الخادم قد أنبأه صاحبه أنه سيحضر بعد برهة . ولكن من يدرى .. إنه قد لا يحضر ألبتة !

وأحس بخوف شديد ، ولم يجسر على أن يدخل البيت بل أخذ يتجول حوله .

وصمم على أن يبقى خارج البيت حتى يأتى صاحبه ، ولكن تذكر فجأة ، ذلك الغول الذى قرأ عنه فى الصحف والذى يخرج من المزارع ويهجم على الفلاحين يوسعهم عضا ونهشا فأصابته رجفة ، وتخلخلت ساقاه واندفع إلى باب البيت ففتحه وتسلل إلى الداخل .. وأغلق الباب خلفه بشدة .

ورمى الحقيبة من يده ، وأقبل على مصباح الغاز المعلق فى الحائط فرفع الشريط ، وارتمى على أقرب مقعد يرتجف من الخوف .

كيف غاب عنه هذا الخطر الداهم ؟ لو لم يتذكره لظهرت الجرائد صباحا .. ولا شغل لها سوى .. « قتيل قليوب » .

ثم أخذ يسطر فى مخيلته نبأ الحادث .

« .. خروج وحش قليوب .. وفتكه بأحد موظفى وزارة المالية .. بينما كان الأستاذ جمعة عبد الجواد شملول يقضى عطلة نهاية الأسبوع فى عزبة صديقه الأستاذ على القليوبى .. خرج يتجول ممتطيا صهوة جواده (هذا أهم ما فى الأمر .. حتى تعرف زكية أنه كان يركب جوادا) » .

وهنا شرد ذهنه فترك مسألة وحش قليوب وانطلق إلى زكية .. ترى ماذا ستفعل عندما يبلغها نبأ موته .. أتراها ستبكى ؟ لقد كانت جلستها بالأمس هائلة ، وقد تعرى باطن فخذها .. إنها لا شك تقصد أن تغريه ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هو .. هل يغمز لها بعينيه ؟

وفجأة وصلت إلى أذنيه طرقة شديدة .. كأنها صوت سقوط جسم ثقيل ، فقفز من مقعده ، وأخذ يدور حول نفسه ، وهو يلهث ويردد مرتجفا « بسم الله الرحمن الرحيم » هذه ليلة يعلم بها ربنا .

ولم يعد هناك مجال لأفخاذ زكية ، فقد احتشد فى ذهنه كل ما يمكن من التصورات عن حقيقة مصدر الصوت .

هل هو الوحش ؟

من يدرى !

وتذكر قصة بوليسية كان قد قرأها فى روايات الجيب .. وتذكر كيف جلس بطل القصة فى كوخ موحش منعزل وكيف كانت الريح تصفر من حوله ، ثم سمع وقع أقدام تقترب من الباب ، ثم صوت أنفاس تتردد لاهثة فى خوف وصوت شىء ثقيل يصطدم بالباب ، ثم سمع وقع الأقدام تبتعد هاربة .. فأخذ يقترب من

الباب فى خوف فلم يسمع شيئا .. ففتحه فى رفق وحذر .. فإذا بجسد قتيل يهوى عليه .

ترى ماذا يفعل هو لو حدث له مثل هذا الأمر وما ذلك على هذه الليلة ببعيد ؟

وعاد بذهنه يسطر نبأ الحادث كما سيقرأ بجرائد الصباح :

« موظف يرتكب جريمة قتل فى دياجير الظلام ! » .

أجل ! إنه سيتهم بالقتل ، وهو لا يكاد يقوى على قتل دجاجة .. وكيف يستطيع أن يثبت أنه غير قاتل .. والجثة ملقاة فى فناء البيت ، ولا يوجد فى البيت سواه .

وأخذ قلبه يدق فى عنف .

لا بد له من أن يغادر الدار ، حالا .

ولكن كيف يستطيع أن يخرج ؟ أيجسر على الخروج من الباب ؟

وإذا سقطت عليه جثة القتيل ؟ ماذا تراه فاعلا ؟

لا .. لا .

يجب أن يخرج من النافذة .

هذا هو خير طريق للنجاة .

وتلفت حوله ، فوجد أمامه نافذة زجاجية .. وأسرع فحمل المصباح فى يده وأخذ فى الاقتراب منها .

وفجأة ندت عنه صرخة مدوية .

هذا هو !! معلق فى النافذة .

القتيل بعينه .. أو ربما القاتل .

أجل .. أجل .. لا بد أن يكون أحدهما .

وإلا فمن يكون هذا الذى تدلى ساقا بنطلونه وأخذتا تتأرجحان وراء زجاج النافذة .

والآن .. ما العمل ؟.

إنه ضائع ضائع .. فهو إما أن يكون قاتلا أو قتيلا .

إذا كانت ساقا البنطلون المتدليتان ساق القتيل فهو لا بد أن يكون قاتلا ، وإذا كانتا ساق القاتل .. عليه العوض .

لقد انتهى .

الله يرحمك يا شملول .. ليتك سمعت كلام أمك وقنعت بقهوة الانشراح .

وفجأة سمع طرقا على الباب .

انتهى !! لقد وضح الأمر .. لا شك أنه القاتل .. وتهاوى على المقعد فى شبه إغماء .

وعاد الطرق يزداد فى إلحاح .. فأجاب فى صوت مختنق مكبوت :

ــ مين ؟

ومن وراء الباب سمع صوتا نسائيا يقول :

ــ افتح يا على افندى .

من ؟!! امرأة ؟.. وماذا أتى بها فى هذا الوقت الحافل بالأحداث ؟! أتراها هى القاتلة ؟

وتذكر رية وسكينة ، ونهض من مقعده وأخذ يقترب من الباب على أطراف قدميه .. ثم وقف وراء الباب وأخذ يتساءل فى صوت مرتجف :

ــ مين ؟. انت مين ؟

ــ أنا سكينة ؟

سكينة؟!! أجل .. هى بعينها .

وعاد يسأل فى رعب :

ــ انت لوحدك .. والا معاك رية ؟

ــ رية مين يا سيدى ؟.. سلامة عقلك .

ــ أنا سكينة خدامة اختك بهية .

ــ أختى أنا .. أنا ماليأش أخت .

— يوه .. مالكش أخت إزاى ؟

— انت عايزة مين ؟

— عايزة على افندى القليوبى .

— خرج .

— أمال انت مين ؟

— واحد صاحبه .

— طيب افتح .

— ماافتحشى .

— يا سيدى افتح .. الواد على دراعى ياخد برد .

— واد مين ؟

— ابن اختك .. قصدى ابن اخت على افندى .

— ماافتحشى أبدا .. إلا لما اتأكد من أخينا اللى متشعلق على الشباك اللى جنبك .

— بسم الله الرحمن الرحيم ، متشعلق على الشباك اللى جنبى ؟ أنا مش شايفة حاجة ؟

— أنا شايفه .. قربى شوية من الشباك وانت تشوفى ، هيه ، شوفت ؟. لقيت إيه ؟.

— يوه يا سيدى خضتني وكركبت بطني ، ده بنطلون سى على منشور .

وهكذا اطمأن قلبه ، فأقبل على الباب يفتحه ، ووجد الخادمة تحمل ابن أخت صاحبه .

ودخلت الفتاة فوضعت الطفل على إحدى الأرائك ، ثم سألته :

— أمال فين على أفندى ؟

— سافر مصر .

— يعمل إيه ؟

ــــ أخته طلبته فى حاجة ضرورى .

ــــ أخته ؟! وأنت هنا بتعمل إيه ؟

ــــ بتفسح .. بقضى ليلة أنس وطرب .. اتفضلى . وانتى إيه اللى جابك هنا أنت والولد ؟

ــــ أصل الجماعة جايين يقضوا الليلة هنا ، علشان يتفسحوا بكره فى المزارع . عن إذنك يا سيدى . أنا رايحة المحطة اجيب الشنط .. خد بالك م الواد .

ــــ تعالى هنا ، واد إيه اللى آخد بالى منه ؟ أنا معرفش فى الولاد أبدا ، تعالى أنا فى عرضك .

ولكن سكينة انطلقت من الباب ، ومرة أخرى وجد نفسه وحيدا فى البيت ، لا يؤنس وحشته .. سوى الطفل الراقد ..

ما شاء الله .. أما ليلة !

وارتمى مرة أخرى فى مقعده ، وهو يرمق الطفل بنظرة شك وخوف .

لا بأس عليك .. المسألة لن تزيد على خمس دقائق تحضر بعدها سكينة والقافلة كلها ، ويستطيع هو أن يعود إلى داره آمنا مطمئنا .

ولكن الخمس دقائق مرت .. دون أن يحضر أحد ..

ومرت بعدها ساعة ونصف ساعة ، وهو جالس يحملق فى الطفل وبدأ الطفل يتقلب على جنبيه ثم فتح عينيه وأخذ يرمق شملول أفندى ، ثم انطلق فى نوبة بكاء وصراخ .

بس .. بس .. هوه .. هوه .

وهكذا أراد أن يهدىء الطفل عبثا .

لا .. إن الأمر لا يحتمل ، يجب أن يخرج ليرى أين ذهبت الخادمة اللعينة .

وفتح الباب وأخذ يتحسس طريقه فى الفناء .. ولكنه أحسَ بقدمه تصطدم بجسد لين .

آه .. إنها جثة .. هذه المرة لا شك فيها .. إنه القتيل . الذى سمع صوت سقوط جثته منذ ساعتين .

واندفع يعدو إلى داخل الدار وأغلق الباب بشدة وارتمى على المقعد لاهثا .

والآن ماذا يفعل ؟ إنه لا يستطيع الخروج . أبدا !

هذا القتيل يجب أن ينتظر إلى الصباح حتى يكتشفوا أمره وليصرخ الطفل كما يشاء !

وأغمض عينيه ودفن وجهه فى كفيه .

ومرة ثانية سمع طرقا على الباب .

من ؟! من يكون هذه المرة ؟

سكينة !!

ربما ...

وبصوته المرتجف صاح من وراء الباب :

ـــ مين ؟

فأجابه صوت أجش عميق :

ـــ أنا .. افتح .

وانكمش فى مقعده ، وعلا صراخ الطفل ، وبدا كأن صاحب الطرقات قد يئس .. فانصرف عن الباب .

الحمد لله .

ولكنه لم يغب طويلا .. حتى عاد الطارق ومعه بضعة رجال ، وازداد الطرق شدة .

وصاح شملول بصوت مرتجف :

ـــ مين ؟

ـــ افتح بقول لك .. أنا محمود الغفير .

وفتح الباب فإذا به أمام الخفير ورجلين من رجال الشرطة ، وصاح محمود

الغفير موضحا للعسكريين :

ـــ أنا كنت راقد هنا لقيت واحد خبطنى بالرجل فى ضهرى ، على بال ما فتحت عينى لقيته جرى استخبى فى البيت وقفل الباب عليه ؟

وصاح أحد العسكريين بشملول :

ـــ بتعمل إيه هنا ؟

ـــ بتفسح .

ـــ بتتفسح ؟. لوحدك .. كده ! مفيش حد معاك ؟

ـــ أيوه . لوحدى كده . مامعييش غير الولد الصغير ده .

ـــ ودا يبقى مين ؟

ـــ والله ماعرفش .. اسألوا سكينة .

ـــ سكينة ؟! هوا انت ؟!!

وأطبق العسكريان على رقبته وساقاه أمامهما كأنهما قد عثرا على مجرم طال البحث عنه .

وصاح به أحدهما وهو يدفعه إلى الأمام :

ـــ أمال فين الفلوس ؟

ـــ فلوس إيه ؟

ـــ الفلوس اللى سرقتها البت ، يا ضلالى يا نصاب ، تغوى البت وتخليها تاخد الواد والصيغة وتهرب من اسيادها .. دانا حاخلى ليلتك سوده .

ـــ أسود من كده ؟

وسار شملول أمام العسكريين حتى وصلا إلى المركز .

وهناك علم أن سكينة قد هربت وهى تنزه الطفل من بيت أخت على القليوبى وسرقت بعض المصوغات (أو هكذا اتهمت) وأنها لم تجد طريقة للتخلص من الطفل غير تركه فى بيت خاله على القليوبى مدعية أن سيدتها ستأتى فى أعقابها ، ثم تفر كما فرت .

وجلس شملول فى المركز والأومباشى ينظر إليه بين آن وآخر ويسأله متهكما :

ـــ والبت مستنياك ، والا زاغت منك ؟ آه يا فلاتى .. يا نصاب .

ولم يجب عليه شملول فقد كان مشغولا بترتيب ما سوف تنشره صحف الصباح !:

« موظف محترم يغوى خادمة ! » .

أو « اغتصاب وسرقة واختطاف ؟ » .

« حدث فى منتصف ليلة أمس أن ضبط أحد موظفى وزارة المالية يحمل مسروقات تقدر بعشرة آلاف جنيه ، وهو يحمل فتاة وطفلا » (هل يستطيع أن يحمل الفتاة والطفل ؟ يستطيع أو لا يستطيع هذا هو الذى سيقال) .

وشرد ذهنه فى سكينة .. وتصور نفسه يحملها .. ويلف ذراعه حول خصرها ويضع كفه تحت إبطها ويلمس صدرها . وهكذا خرج من الموضوع وبدأ يقارن بين سكينة وزكية .. لا . لا . إن زكية أحسن كثيرا ، إن بطن فخذها أكثر امتلاء ، ولكن كيف يحكم ، وهو لم ير فخذ سكينة ؟.

وأحس بيد الأومباشى تجره من عنقه وتسوقه إلى الزنزانة .

ودخل شملول الزنزانة .. فأحس بالاطمئنان لأول مرة فى الليلة .. إنها على الأقل تعنى خاتمة المطاف ، وهو يستطيع أن يرقد آمنا بين جدرانها الأربعة .

وفى الصباح استيقظ على صوت صديقه على القليوبى يوقظه ، ويعتذر إليه عن كل ما حدث وينبئه أنهم قد قبضوا على سكينة .. ويختم اعتذاره قائلا :

ـــ ياللا بينا بقى يا عم تتشطف ونفطر ونطلع نصطاد .

ـــ لا يا عم .. حد الله بينى وبينك ، وورينى سكة المحطة يا خويا .. توبة ان سبت الناصرية وحى السيدة .. هوا فيه أحسن من قهوة الانشراح ؟

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ...... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية ..... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ...... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ...... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات ..... ١٩٥٧)
من حياتى	(» .... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات ..... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية ..... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ...... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات ..... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ...... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات ..... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة .... ١٩٧٣)

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٦

الترقيم الدولى : ٤ - ٠٢٨٣ - ١١ - ٩٧٧